أمة واحدة:
التضامن في العمل
د. عبد الحفيظ عبد الرحيم محبوب
ناشري

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في شوال،١٤٣٥/أغسطس، ٢٠١٤.

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في نـاشري دون إذن كتـابي مـن الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: فوزية الألمعي
تصميم الغلاف: ياسر تقي الدين
التدقيق اللغوي: هبة العربي

محتـــويات الكتـــاب

مقدمة ٤

المبحث الأول: التخلف العلمي والاقتصادي ١٤

البحث العلمي وضعف الحالة الاقتصادية في العالم الإسلامي: ١٤
الإنفاق على البحث العلمي يعمل على سد الفجوة العلمية: ١٦
القيود غير الجمركية عقبة أمام تفعيل أي اتفاقية للتجارة الحرة بين الدول الإسلامية: ٢٢
أثر انضمام الدول الإسلامية إلى منظمة التجارة العالمية وعقد الاتفاقيات الثنائية قبل قيام منطقة التجارة الإسلامية: ٢٤
أثر الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية قبل نشوء منطقة تجارة حرة للدول الإسلامية: ٢٦
دور البنك الإسلامي للتنمية في إنشاء سوق إسلامية مشتركة: ٢٨

المبحث الثاني: عالمية الإسلام والعولمة ٣٣

عالمية الإسلام والعولمة: ٣٣
عالمية الإسلام منحت الإنسان هوية جديدة: ٣٧
إنسانيات عالمية الإسلام: ٤٢
خطورة أيدلجة عالمية الإسلام: ٤٦
أزمة هوية في عصر العولمة: ٤٩
ديناميكية العولمة لا تستند إلى مضمون ثقافي بل إلى أيديولوجي عقائدي: ٥٣
عولمة (دين الحداثة) من خلال (كونيه الحداثة) في عصر العولمة الزاحفة: ٥٨
الفرق بين دعوة العولمة وعالمية الإسلام: ٦٢

المبحث الثالث: المسلمون بين التقسيم وصراع الأدوار ٦٤

المسلمون بين التقسيم وصراع الأدوار: ٦٤
التكريس للهوية القومية وفصلها عن القطبية الدينية: ٦٦
خطورة النزعات العنصرية على وحدة الأمة: ٦٧
خطر التعصب على وحدة تماسك الأمة: ٧٠
مواجهة الغلو على أساس أنه ظاهرة مرضية وليست حتمية: ٧٣
تفكيك القيود الاجتماعية بالوعي الديني والثقافي: ٧٧

المبحث الرابع: تعدد المذاهب بناء متكامل ٨١

خطر مدرسة الرأي الواحد: ٨١
الفتنة الشيعية السنية إلى أين وما مداها؟ ٨٢
الإسلام واحدًا ومتعددًا: ٨٤
من التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى الحوار بينها: ٨٥
التعدد المذموم في المنهج الإسلامي: ٨٦
الدور السعودي في جمع كلمة المسلمين: ٩٧

المبحث الخامس: قدرة الإسلام على إدارة ورعاية التعددية ١٠٤

حرية المعتقد: ١٠٤
نداء مكة لمواجهة تحديات الانغلاق: ١٠٥

الدين الإسلامي وقدرته على إدارة التعددية: ١٠٧
الدفاع عن الحرية من أسس الدين الإسلامي الحنيف: ١٠٩
إسلام المساواة والتعددية المساواة ما بين الجنسين: ١١٣
الدين الإسلامي مرجعية وليس قومية : ١١٨
السلفية ... منهج: ١٢٠
الجدل حول مفهوم البدعة: ١٢٤
مفهوم الجماعة: ١٢٦
الخلافة الإسلامية ليست أصلا من أصول الدين: ١٢٧
الشورى لم تحدد آليات بل تركتها للمجتمعات حسب حاجات كل عصر: ١٢٩

المبحث السادس: حيوية الإسلام البنائية (نماذج للوحدة)..... ١٣٥

مفهوم الأمة الواحدة: ١٣٥
حيوية الإسلام البنائية: ١٤١
نماذج لبناء الوحدة: ١٤٤
الوحدة من خلال التنوع: ١٤٦
هل يستطيع العرب والمسلمون أن يدخلوا في وحدة مبسطة؟ ١٤٧
الوحدة من خلال التوافق: ١٤٩

الخاتمة..... ١٥٢

مقدمة

أسباب تعثر مشروع النهضة الإسلامي:

يشهد الوقت الحاضر انسحابًا للمسلمين من العالم وفشلهم في خلق عناصر واتجاهات قادرة على التأثير في توجه العالم ومعاناة أزمات متلاحقة.

ومنذ بداية القرن العشرين حينما حاول محمد عبده وزملاؤه الكرام استنهاض مشروع للنهضة ولكن كان يعيب على تلك المشاريع هو التقليد والفارق كبير بين مشروع النهضة التقليدي والحداثة الغربية.

فالحداثة الغربية التي نجحت في الغرب كانت منفصلة عن القيمة لكن نحن بسبب التقليد لم نتمكن حتى من الحوار مع الذات ولا مع الآخر وأن نجعل البعد المعرفي قائمًا بذاته ليتسنى للمشروع الإسلامي من النهوض النوعي وحمل لواء التغيير.

ولا زلنا نحن مشغولون في الاختلاف في المعنى، ولم نتجاوزه وأصبح معول مواجهات ساخنة بين مختلف التيارات. فإذا كانت تختلف في صحة النص النبوي لاعتبارات عديدة مثل الاعتداد بأحاديث الآحاد خصوصًا فيما يتعلق بقضايا الحدود واختلاف المقاييس التي تتناول بها صحة الأحاديث. فقد امتدت أيضًا إلى النص القرآني وأصبح المعنى وفق خلفيات واتجاه كل تيار مما أنتج صراعًا بين النقل والعقل منذ زمن العصر العباسي تحملنا تبعاته وانتقلت إلينا كعدوى لم نتجاوزها إلى ما هو أهم بل إن الكثير مما تناوله الفقهاء في الماضي لم تصبح له حاجة في الوقت الحاضر وكان واقعًا لهم وماضيًا لنا ولم نتمكن نحن من دراسة بعد الواقع بعيدًا عن بعد الماضي وفق الكتاب والسنة لبناء حضارة إسلامية

مستقلة ذات بعد واقعي تجديدي حداثي وفق الثوابت الإسلامية دون إلغاء أو إحداث قطيعة مع التراكم المعرفي والثقافي والتراثي.

فمعظم الدراسات الحديثة كانت تتحاشى كثيرًا دراسة البعد الواقعي وإن كانت تتناوله فهي تتناوله ضمن معطيات وأدوات الماضي. والواقع مفرز رئيس للدلالة البعدية وهو ما اصطلح عليه علماء الإسلام بـ (النظر) أو بالمقاصد مثلما استند ابن رشد في كتابه (فصل المقال) على كثير من الآيات لإتيان حجية المقاييس البرهانية شرعًا وهو مايسميه بحجية الواقع المعتمدة على النظر والتجربة في فهـــم الظواهر الكونية والإنسانية{أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٥]، وهو منهج علمي لا خلاف عليه فسبب أزمة مشروع النهضة الإسلامية هو عداء الواقع والقفز عليه وحصره ضمن أدوات الماضي.

وقد اختلط على الدارسين التفريق بين السنة والحياد عنها الذي يكون بدعه في التوحيد والدين أي في الثوابت وبين مسائل أخرى مطروحه للنقل والعقل بحسب ظروف كل عصر من العصور، وهو مانسميه بالواقع أو بالمقاصد أو النظر أو في أمور مختلف حولها وهي أمور ظنية وليست قطعيه الدلالة. وهناك العديد من الأحاديث النبوية التي تحث على التمسك بروح السنة اقتداء بالسلف الصالح كما في الصحيحين فقد قال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ضلاله"، {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا}، وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشوا الكذب".

فلا مانع من الانتساب إلى السلف في التمسك بالسنة {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله لَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [التوبة:١٠٠] {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام: ١٥٣] أما في أمور الحياة كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث عديدة: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" فأمور الحياة تختلف من عصر إلى عصر، ومن زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان بحسب قدرات البشر وإمكانياتهم الفكرية والبشرية، فلم يقيدنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسنة نستسن بها في أمور حياتنا على مر الأجيال؛ لأنه يعرف صلى الله عليه وسلم أن ذلك مخالف للسنن الكونيه التي خلقها الله سبحانه وتعالى الكائنة في التنوع والاختلاف المؤدية إلى التعارف والتعاون والتكامل في إطار من التنافس العائد على البشرية بالنفع {فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦] فمعاداة الواقع بسبل مختلفة أعنفها الإرهاب المسلح لهو سبب من أسباب فشل وتأخر المشروع الإسلامي ليس في اللحاق بالمشروع الغربي وإنما في منافسته، وتكوين شخصية مستقلة بمقوماته الذاتية؛ لأن اللحاق هو تقليد، والتقليد هو نوع من أنواع الجمود الذي يضعنا دومًا في إطار من تبعية الغير دون تقدم. فمن الضروري مصالحة جميع التيارات مع الواقع وتحجيم مساحات الصراع التي ورثناها.

فقد آن الأوان لنؤسس لفكر إسلامي واقعي يتلاءم مع متطلبات العصر ولا يتعارض مع الثوابت الدينية.

ومما يدعو للعجب أن يدرك غير المسلمين أهمية ديننا ويغفل عنه المسلمون والبحث عن حلول لمشكلاتهم وإضافتها إلى نظمهم الوضعية، وديننا فيه من خصائص الشمول والتجديد والسعة والعالمية والمرونة مايجعله صالح لكل زمان ومكان، ولا قيود على حرية الفكر إلا قيد الإباحة، ورفض تبرير

الوسيلة، ويحرص على طهارتها وطهارة الغاية ولا يمانع من الأخذ من الحضارات الأخرى من علومها وتجاربها الناجحة.

المسلمون بينا أزمتان للخروج من أزمة التخلف:

نحن الآن أمام أزمتين، أزمة الحركات الإسلامية في محاولة إعادة الخلافة الإسلامية وكأنها هي العصا السحرية للتخلص من تخلف المسلمين، ومن قال أن عصر الخلافة الإسلامية في عهد الدولة العثمانية كان عصرًا زاهيًا مثل عصور خلافة بني أمية والعباس.

والأزمة الأخرى هي محاولتنا تطبيق الديمقراطية المصدرة إلينا من الغرب وهي الأخرى ليست العصا السحرية لإنقاذنا من التخلف.

فالحركات الإسلامية انشغلت بالحكم وبتسييس الدين ومحاولة الوصول إلى السلطة ونسيت الرسالة الحقيقية من الإسلام التي هي أكبر وأجل من الحكم والسلطة ألا وهي حمل أمانة تبليغ الرسالة إلى أمم الأرض قاطبة بعدما ختمت الرسالات بالرسالة المحمدية، وأصبحت هذه الأمة مسئولة عن تعويض البشرية بإرسال الرسل والأنبياء وإيصال هذه الرسالة إلى الأمم كافة بخطابات متنوعة تدركها عقولهم، وإفهامهم لإقامة الحجة البالغة عليهم ويكونوا شهداء الله في الأرض، وهذا لا يعني إنكار حقهم في الحكم والوصول إلى السلطة كمكون من مكونات الشعب، وتبليغ الدعوة ليس مرتبط فقط بالوصول إلى السلطة، وقد يتحقق ذلك ولكن إذا انطبقت شروط التمكين في الأرض مثلما تمكن الخلفاء الراشدون والدولتين الأموية والعباسية.

ودائمًا تردد الحركات الدينية عبارة ليصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح بت أول هذه الأمة ولكنها نسيت شيئًا مهمًا بأن الدولة التي أنشأها الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت دولة وحي معصومة خصوصًا في الجوانب التشريعية، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ

أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣]، فما صلح بت أول هذه الأمة كان أمرًا إلهيًا بتقدير محكم من العزيز الحكيم وبعد ذلك لا يكون تأليف القلوب إلا بالوسائل والدوافع التي أمر بها الإسلام، وليست دوافع معصومة كما كانت في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وإلا لما حدثت الفتن في عصر الراشدين فمحاولة استنزال ذات النتائج التي تحققت في العصر النبوي أو في العصر الراشدي على عصرنا هذا؛ لأن التاريخ ليعيد نفسه ورسالة الإسلام هي أكبر من ذلك بكثير واختزالها في شكل الدولة فقط أو في تسليم الحكم لفئة معينة أشغلها عن تحمل أمانة إيصال الرسالة المحمدية إلى البشرية {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، فالوصول إلى السلطة ليس هو حل لمشكلات الأمة وحده، فهو تبسيط مخل للأمور وليس الوصول وحده مقدمة للإصلاح؛ لأن هذا الإصلاح يجب أن يبدأ بمعالجة أسباب الخلل الذي أدى إلى هذا التخلف والضعف والتفكك. نحن نحتاج إلى أن نرجع أولاً إلى فقه التدين أكثر من فقه الدين. فالخلافات بين الحركات الإسلامية هي أكثر من الخلافات بين الدول بل إن الخلافات أكبر في داخل الحركة نفسها ولماذا مهمل التغير والتحول النوعي والكيفي التي جعلت من الإنسان الغربي يغير من المهارة الحرفية اليدوية في العملية الإنتاجية إلى التأهيل العقلي العملي.

وكذلك النظرة الكلية إلى الواقع لا تكافئها إلا النظرة الكلية للكتاب والسنة والتي لا تواجه في إطار الفقه الانتقائي التجزيئي.

أما عن الخلافة الكاملة فستكون في زمن المهدي وعيسى بن مريم عليهما السلام والأمور العظام في آخر الزمان والتي ينبغي ألا تكون هي شغلنا الشاغل استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ١٠٤].

أما بالنسبة للأزمة الأخرى التي نعيشها وهي محاولتنا أن نقارب الديمقراطية الغربية بالشورى الإسلامية متناسين الفوارق بينهما، فالأولى ذات

جذر فردي ليبرالي وقائمة على تقنين الصراع، بينما الشورى قائمة على وحدة الجماعة ونبذ الصراع، وبسبب التخلف الذي نعيشه لم نتمكن من صياغة آليات للشورى تمكننا من مسايرة العصر كما تمكنت المجتمعات الغربية من تطوير آليات متقدمة للديمقراطية الغربية وأصبحت تتولد لدينا بين حالات الرفض السلبي أو حالة قابلية الانتماء للمتغلب وأيًّا كانت تلك المسميات والانتماءات وعمليات القبول والرفض فإن عملية الإصلاح تتطلب تكوين ثقافة المشاركة بكل ماتت طلبه من قوانين وشروط ومؤهلات.

ولا يمكن أن نقلل من أهمية الانتخابات البلدية أو التشكيك في دورها وفعالية نتائجها، فهي صاحبة دور أساسي في خدمة الوطن والمواطن بل أنها تفوق في بعض الأحيان الانتخابات العامة والبرلمانات المنبثقة بسبب الاحتكاك المباشر مابين المرشحين والناخبين؛ لأن المرشح لابد أن يكون معروفًا بشرط أن تتجنب البعد عن التعصب والتطرف وإثارة الفتن واستغلال والانتماءات القبلية والعائلية وعدم الانجرار وراء الإغراءات المالية والوعود البراقة التي شوهت بعض التجارب الديمقراطية لإكمال مسيرة التطوير والتحديث المتمسكة بثوابتها ومبادئها المنبثقة عن الشريعة الإسلامية السمحة وان نجعل الانتخابات الديمقراطية آليات ووسائل إصلاحية لا غايات.

نقد وتفكيك أسباب استمرار أزمة المسلمين:

إذا كان النقاد وفلاسفة الغرب نقدوا الحداثة الغربية واتبعوا نمطًا تفكيكًا واعيًا لإبطال الخطاب الذي أقام الغرب عليه كل سلطاته على بقية الإنسانية وسماها الحداثة، ومنهم جاك دريد الذي جعل من التفكيك سلطة معرفية يحاول بواسطتها الكشف عن مكونات الحداثة الغربية واقصاءاتها وحيلها وهو مايسمى (نقد مباعد الحداثة) أو (مباعد البنيوي) لذلك فهو لا تعتبر الديمقراطية حكم عادي بل هي مايجب أن يعمل من أجلها لكي يتحقق في المستقبل، ولكن بعد تفكيك الحواجز التي توصل إلى تحقيق هذا الهدف وهذه الحواجز والتي لا تكمن في النصوص فقط بل أيضًا في الأنفس البشرية وفي

سلوكها إزاء الماضي والأخر وإزاء مايعتقد بأنه صحيح كما إزاء ماتعتقد أنه خاطئ، إذا فالتفكيك نمط ديمقراطي وسلطة مرجعية جديدة ومنهج تحليل سياسي وقانوني بل طريقة في الحياة تتفق معها الاديان، فالنص عالم فسيح فالمعقولات والحقائق هي مجرد تأويلات للنص ومدار النص هو الاختلاف والفوارق، فالتفكيك يحرر النص ويوفر له إمكانات ودلالات ثرية.

هذا ما جعل دريدًا ينتقد الحالة السياسية الأمريكية ذات النزعة البراغماتية خصوصًا بعد إحداث ١١ سبتمبر التي كتب حولها أحد كتبه الأخيرة بمعية الفيلسوف الألماني المشهور بروغنهارماس معتبرًا فيه إن الإدارة الأمريكية عاجزة عن محاربة الإرهاب الذي أصبح هو شكل الحرب الوحيدة الممكنة في عصر العولمة، لكن هل نستطيع نحن العرب والمسلمين تفكيك ونقد حالة التخلف والانحطاط الذي نعيشه بعد ما استوعبت الحضارة العربية الإسلامية الكبيرة التراث الاغريقي – الروماني وانتصرت عسكريًا على ماعداها وكانت متفوقة على الغرب اقتصاديًا وثقافيًا طيلة عدة قرون من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بعدئذ انهارت من تلقاء نفسها في القرن الرابع عشر تاركة الساحة فارغة للنهضة الأوربية وأصبح المسلمون في حالة جمود واجترار وتكرار حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم، ولكن لماذا حصل هذا الانحطاط؟ ولماذا حصل هذا الجمود بعد كل تلك الانطلاقة الحضارية الرائعة في القرون الأولى؟

من أسباب التخلف التي وصل إليها المسلمون هو التردد والتباين في إباحة أخذ العلوم عن الكفار هذا ما جعل الأوربيون يتفوقون عام ١٦٨٣ في فينا على الدولة العثمانية.

وانقسمت النخبة الإسلامية على نفسها فالبعض يدعو إلى الاستفادة من الغرب المتفوق وتقليده لأنه أصبح منارة حضارية ولكن الأكثرية عارضت ذلك وأرجعت سبب الضعف إلى التخلي عن تراث السلف الصالح وعن تراث العثمانيين ولا تزال هذه المناقشة جارية إلى وقتنا الحاضر ولا ننسى إن معظم موارد العرب بدلاً من

إن تكرس للتنمية أصبحت مكرسة لشراء الأسلحة والانخراط في صراع فرض علينا وعلى المنطقة .

هناك قراءات عدة تنطلق من زوايا مختلفة لتفكيك أزمة المسلمين في ظل تعاظم خيار التطرف والإقصاء والاستئصال وصعوبة فك الاشتباك بين الدولة والمجتمع، وكلما ازددنا عجزًا تمسكنا بالماضي رغم إنه من الواجب علينا إن نرد تراث الماضي إلى الظروف التاريخية التي نشأ فيها لمعرفة كيف تم توظيفه والقوى الاجتماعية والسياسية المحيطة به والتي أفرزته لنتحرر من التحجيم ولنتمكن من الاختيار طبقًا لظروفنا وواقعنا الحاضر، ولكن ما حدث هو عكس ذلك فتأخر اجتهاد الانفتاح وتقدم اجتهاد الانغلاق حتى أصبحنا إمام غزو جديد من الخارج هو الغزو الفكري المتفوق والعلمي المتقدم والتقني المتسارع.

وأخفقنا في مصالحة الإسلام مع العصر والتوفيق بين الإسلام وحداثة الفكر الإنساني ثم بين الدين وحاجات الناس، بسبب إن الإسلام الإصلاحي أخفق إمام الإسلام الانطوائي المضاد لأي انفتاح على الفكر والثقافة الإنسانية والتي خرج من تحت عباءته التطرف ثم العنف المرادف بالتكفير والرافض للمجتمع والدولة والنظام العالمي الجديد بسبب أن الإسلام الانطوائي المنعزل يراوح بين الاعتدال المعلن والعنف المستتر وأصبح يفرض رقابة صارمة على حركة الثقافة والتعليم مما منح الجماعات الدينية مرجعيات تسيسية عززت من الفكر الديني الانغلاقي.

وإذا تمكنت الجماعات الانغلاقية من إلحاق الضرر والأذى بالولايات المتحدة على الأخص وحليفاتها، فإنها فتحت الباب بأفعالها للقوات الأجنبية على الدخول إلى عاصمة الخلافة العباسية وإلى كابل ويقف شارون وفلاديمير بوتين في موضع التقدير في الحرب العالمية على الإرهاب حتى أصبح ينظر إلى المسلمين بمزيد من الشك والاستياء بل والكراهية فدمرنا أنفسنا بأيدينا أكثر مما فعله الصليبيون والصهاينة بنا.

هناك حدود أخلاقية وحرب عادلة لاستخدام القوة وضعها الاسلام.

وبعد الحادي عشر من سبتمبر استغل الإعلام العالمي الحدث استغلالاً سياسيًا تصنع الخوف ليملأ قلوب وعقول البشر بالرعب، ويستخدمه مبررًا ليقوم بما يريد القيام به من سياسات عنصرية وحروب إبادة وإعادة احتلال لبلدان مستقلة، وغزو بلدان إسلامية ونهب ثروات وتدمير مصائرها تزامنت مع عولمة الاقتصاد والثقافة التي استثمرت في نقل الخوف بدلا من نشر المساواة ومعالجة الفقر مما دفع جماعات أخرى نحو التطرف وأصبحنا في حلقة مفرغة لاتنتهي.

متى نعود مرة أخرى ونقدم للعالم وللإنسانية ما قدمته الحضارة الإسلامية في سابق عهدها والتي هي أساس الحضارة الغربية وسببها انتشرت العلوم بأوربا، وإن تخلفنا سببه الرئيسي هو تخلفنا في اللحاق بأنفسنا وعلينا إن نتحول من فورة الصحوة إلى رشدها ومن ثم إلى اليقظة والوعي المنضبط الجماعي.

العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق في مواجهة التحديات المتجددة:

من أهم العوامل في مواجهة التحديات المتجددة هو تجنب التشرذم وسوء الظن والفرقة والانغلاق وماله من أثر سيء على الأمة الماثل من انحطاط فكري وثقافي وتخلف مادي ومعنوي.

وهنا يجب ألا نغفل دور المؤتمرات والمنتديات وأثرها في تصويب الاتجاهات الفكرية الخاصة بالعمل الإسلامي، بين الاتفاق والافتراق بما مثله من إضافة للساحة الإسلامية ومحاولة للاقتراب الواعي من إشكالات واقعية ورسم أدوار جديدة لتسهم في التأصيل لمنهج أصولي توحيدي لاتساق المعرفة الإنسانية، فالعمل الإنساني بين الاتفاق والافتراق هو الذي يهدف إلى تجميع جهود كل العاملين في حقل الدعوة إلى الله تعالى من مختلف اتجاهاتهم ومشاربهم الفكرية امتثالا لقول الله تعالى:{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران:١٠٣]، فمن خلال نشر ثقافة الاجتماع وتوسيع دائرة المشاركة الشرعية في حقل الدعوة من خلال العمل على المتفق عليه والتحاور في المختلف فيه، والأعذار فيما سوى ذلك، مع تفعيل الائتلاف والاجتماع في العمل الإسلامي يتفق عليها العاملون في الحقل الإسلامي، مع إشاعة ثقافة أدب الحوار بين المتحاورين

والمثقفين وإدراجها في المناهج العامة لترسيخ هذا المبدأ الإسلامي. وتضمين ثقافة فقه أدب الحوار موضوعات تتحدث عن أدب الخلاف وطرق التعامل مع المخالف.

وواجب العلماء والدعاة والخطباء والإعلاميين تفعيل فقه الحوار في خطابهم الدعوي وكتاباتهم وبيان خطر الافتراق على الأمة وإنها تعيش منعطفًا خطرًا وتواجه عدوًا شرسًا وتكتلات كبرى، لأن التحديات تهددنا جميعًا ولا تفرق بين مسلم سني أو شيعي.

المبحث الأول: التخلف العلمي والاقتصادي

البحث العلمي وضعف الحالة الاقتصادية في العالم الإسلامي:

من أسباب التخلف الرئيسية في عالمنا الإسلامي قلة وندرة مراكز البحث العلمي ما يجعل معظم خريجي العلوم والرياضيات ينتهون في حقل التدريس ضمن آفاق محدودية ومسدودة يستسلم لها الكثيرون ويرفضها البعض ولكن سبيله الوحيد هي الهجرة إلى الأماكن التي تقدر البحث العلمي وتنفق عليه حتى أصبح ٤٥% من الشباب العربي يرغب في الهجرة.

البحث العلمي في الغرب صناعة لإنتاج الثروة وهو أحد عوامل قوة الدول الغربية الذي جعلها تتقدم أشواطًا بعيدة ما لم يحققه المسلمون رغم احتكاكهم الحضاري والتاريخي والجغرافي فالبحث العلمي بشقيه الأساسي والتطبيقي لهما فوائد اقتصادية واجتماعية وفي تصحيح مفاهيم مباشرة وغير مباشرة تقود إلى زيادة حجم الإنتاج عن طريق ابتكار منتجات جديدة من خلال عملية التطوير والتحديث في مراكز الأبحاث بعملية البحث العلمي والإنفاق عليه هي من أولويات الغرب التي لم تجد طريقها في العالم العربي وتكتفي بحل المشكلات الأمنية الملحة بدلاً من الانخراط في استثمارات طويلة الأجل التي تتطلبها عملية البحث العلمي والتطوير.

وكشفت دراسة أن دول العالم خصصت ما بين ٠,٦ بالمائة لمائة من ناتجها المحلي الإجمالي لعمليات البحث والتطوير، ويبلغ المتوسط العالمي نحو

١,٦ في المائة، فيما وصل متوسط الإنفاق على البحث العلمي والتطوير في بلدان العالم المتقدم نحو ٢,٥ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي، بينما متوسط الإنفاق في الدول العربية لا يتعدى ٠,٢ في المائة من الناتج الإجمالي، أي أقل بثماني مرات من المتوسط العالمي وأدنى بما يزيد على ١٣ مرة من متوسط الإنفاق في البلدان المتقدمة وتشير الدراسة إلى أن البلدان النامية غير العربية تخصص نحو ٠,٦ في المائة من ناتجها المحلي الإجمالي لأغراض البحث العلمي، وهي تتفوق على العالم العربي بثلاث مرات.

وتلعب الحكومات دورًا فاعلاً في تشجيع مؤسسات القطاع الخاص بالتوجه إلى الجامعات ومراكز الأبحاث المتخصصه لبناء قراراتها على حقائق مستمدة من الواقع.

فالمسلمون يعيشون على هامش التقدم، وعلاقتهم هشة بثورة المعلومات ولا يدركون ماهية الذكاء الاصطناعي أو علم الجينات وأبعد ما يكونوا في غزو الفضاء أو أسرار علم الضوء مبتعدين عن الحداثة بسبب إننا لا نملك أدواتها العلمية ولا التطبيقية.

فإن الأهمية لا تتوقف على مراكمة الاكتشافات والاختراعات وإنما الأهم هو تمفصل الاكتشافات مع قدرة ديناميكية وذكية توظفها في تغيير الحركة السلوكية للإنسان، وهي بدأت في العصر الصناعي في الغرب وبعد تمكنه من الوصول إلى حالة الإنتاج الواسع والكثيف وزادت كمية الإنتاج عما هي عليه عن طريق جزأين أساسيين هما المعلومات والذكاء متجة نحو زيادة تنويع الإنتاج وإدخال تعديلات مستمرة عليه دون تكلفة كبيرة، وهي التي تسمى في وقتنا الحاضر بالعولمة المركبة بدء بالكشف واستغلال الكشف ومنطلقهما واحد هو الفكر والبحث العلمي.

أين نحن المسلمون من ذلك التقدم الهائل بعدما غادرتنا مهارة البحث والاكتشاف هل نحن قادرون بالحد الأدنى على توظيف اختراعات الآخرين والاستفادة منها؟

الإنفاق على البحث العلمي يعمل على سد الفجوة العلمية:

يهتم ويحث رؤساء منظمات الأعمال والسياسيون رجال الإعمال والصناعة بشكل مستمر على ضرورة الاستجابة للمنافسة من خلال زيادة قدراتهم على الابتكار لأنه منتج ملموس Tangible product، ويمكن إن تكون نقطة البداية للابتكار توليد أفكار جديدة.

فالأهمية لا تتوقف على مراكمة الاكتشافات والاختراعات وكفى، وإنما الأهم هو امتلاك الاكتشافات قدرة ديناميكية وذكية ما تسمى بالقوة الناعمة توظفها في تغيير الحركة السلوكية للإنسان.

فالكشف واستغلال الكشف كلاهما مركبان يعتمدان على منطلق واحد ألا وهو الفكر. فمشكلة العرب وبالأخص دول الخليج الوقوف عند حدود النتيجة العلمية دون امتصاص رحيقها وتعميم فوائدها.

فالعالم العربي بما فيه دول الخليج لم يتمكن من توظيف اختراعات الآخرين والاستفادة منها، فمسألة التخلف الذي يعاني منه العالم العربي لا تتوقف عند السؤال عن سبب عقم البحث العلمي والاكتشاف وإنما الإلحاح عن معرفة سر رفض استغلال واستثمار دول الخليج خلال الفترة الماضية ما هو موجود ومطروح على الساحة الدولية.

فبلد مثل الهند استطاع أن يقوم بجهود علمية جبارة ومتميزة ولها خصوصيتها عن تلك التي تقوم بها الولايات المتحدة الأميركية، وستصبح الهند بحسب التوقعات وفي القريب العاجل، ثاني دولة في تكنولوجيا الفضاء. لذلك أدركت العديد من الجامعات في الدول المتقدمة أهمية مساعدة الباحث على إخراج جهده الإنتاجي إلى عالم النور، فأسست مراكز متخصصة تقوم بهذه المهمة مقابل نسب من الربح ومثال على هذه المراكز استطاع معهد ماشاشوست للتقنية MIT خلال ١٥٠ سنة إن يؤسس أربعة آلاف شركة لتسويق منتجات بحثية.

فالدول المتقدمة تنفق على البحث العلمي في حدود ٣ في المائة من الناتج المحلي الإجمالي تصل إلى ٥ في المائة في بعض الدول وهو ما يفسر السبب وراء ما حققته كوريا الجنوبية بسبب إنفاقها على البحث العلمي الذي ارتفع من ٠,٢ في المائة عام ٢٠٠٠ إلى ٥ في المائة في السنوات الأخيرة، بينما الإنفاق على البحث العلمي في دول الخليج لا يتجاوز الإنفاق على البحث العلمي كثيرًا عن ٠,٥ من المائة من الناتج المحلي الإجمالي لدول الخليج وكذلك في بقية الدول العربية الأخرى.

فالنجاح في أعمال البحث والتطوير يتطلب مرونة في الإجراءات المالية والإدارية وأن تتعاون مؤسسات التعليم العالي مع مراكز الأبحاث المستقلة في القطاع الخاص لا غناء العملية البحثية، ولكن للحكومة دور فاعل في تشجيع القطاع الخاص للتوجه إلى الجامعات ومراكز الأبحاث المتخصصة لبناء قراراتها على حقائق مستمدة من الواقع.

وإن كانت هناك شركات خليجية مثال ذلك أرامكو فإنها تمتلك مركزًا للأبحاث والتطوير يعتبر من أهم مراكز الأبحاث في مجال البترول في منطقة الشرق الأوسط كما استطاع هذا المركز إن يقطع شوطًا زمنيًا كبيرًا في مجال توطين التقنية ورفع الإنتاجية وتسجيل حلول مميزة على الصعيد العالمي في مجالات تقنية البترول وأوجدت حلولاً جوهرية لمشكلات التشغيل، وكذلك مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، ومعهد الكويت للأبحاث العلمية ومعهد البحوث في جامعة الملك فهد للبترول والمعادن والعديد من مراكز الأبحاث في جامعات دول الخليج الأخرى ولكن الإشكالية في أن العديد من البحوث العلمية لا تجد طريقها للتنفيذ في معظم الأحيان بسبب جوهري ناتج عن غياب أو الافتقار لسياسة التسويق المطلوبة لهذه البحوث إما في نفس الجامعة أو بإنشاء مراكز متخصصة للتسويق على غرار ماشاشوست.

ولم تكتف شركة أرامكو بذلك بل أوجدت قنوات مباشرة لموظفيها للمساهمة في رفد الشركة بآلاف الأفكار والحلول وربطهم بأحد المديرين

التنفيذيين بشكل يحفظ حقوقهم الفكرية. وبذلك تمكن مركز الأبحاث في أرامكو في توطين تقنية صناعة البترول وتخفيض تكلفة الإنتاج وإيجاد حلول للمشكلات البيئية والحصول على براءات اختراعات مسجلة عالميًا.

ولكي يبقى دور القطاع الخاص ومساهمته المتواضعة للبحث العلمي في دول الخليج وزهده في إنشاء مراكز للبحث العلمي أسوة بأرامكو خصوصًا إذا ما عرفنا إن القطاع الخاص في العالم المتقدم ينفق على برامج البحث والتطوير الصناعي والتي تتراوح مابين ٨٠ – ٩٧ في المائة من إجمالي الإنفاق الإجمالي على البحث العلمي وترتفع النسبة أقصاها في اليابان.

وبذلك تنخفض مساهمة الحكومة بشكل واضح والجزء الأعظم من التمويل يأتي من القطاع الخاص هذا هو أحد أسباب جعل الإنتاج منافسًا عالميًا نتيجة التطوير والإنفاق على البحوث المستمر نتيجة المرونة العالية في القطاع الخاص.

وفي الحقيقة التي يجب إن ندركها إن دول الخليج تعيش مرحلة تغيرات اقتصادية كاسحة في ظل تحرير التجارة وقوانين منظمة التجارة العالمية والعولمة التي عملت على انفتاح الأسواق أمام السلع والخدمات والتقنية، يترتب على تلك التغيرات بروز أجواء تنافسية حادة البقاء فيها للأقوى، أي من يمتلك الميزة التنافسية والميزة التنافسية لا تمنح بل يتم السعي الدؤوب والحثيث لخلق وتوليد الميزة التنافسية وتوطينها، والميزة التنافسية هي غير الميزة النسبية ولا يمكن توطينها من دون الإنفاق على البحث العلمي لان الميزة التنافسية تتضمن الميزة التنافسية العلمية والتقنية والقدرة على التطوير والإبداع وتحويل الأفكار الخلاقة إلى سلع ومنتجات ملموسة ومتميزة سهلة التسويق وبأقل التكاليف حتى تستطيع إن تنافس السلع الأخرى المشابهة.

لأن الحصول على التقنية لا يتأتي فقط بشرائها بسبب إن دول الخليج تمتلك أموالاً مصدرها البترول؛ لأن مالكو التقنية لا يسمحون بنقلها لذلك فإن توطين التقنية يتطلب مزيدًا من تأسيس مراكز البحوث، وزيادة الإنفاق على

البحث العلمي، ويتطلب مزيدًا من التدريب وتأهيل الكوادر الوطنية، واستقطاب القدرات العلمية العالمية بما يتناسب مع الظروف والاحتياجات المحلية.

فديناميكية النمو والتوسع وتوفير الوظائف الجديدة لا يتم إلا من خلال توليد الشركات الجديدة التي تتبنى تكنولوجيا جديدة يتم الحصول عليها من مراكز الأبحاث في الجامعات وما حولها التي تعتبر أصحاب العقول والباحثين هما الثروة الحقيقية في المجتمع والاستثمار في العقول لأنه استثمار لا ينضب مثلما تنضب الموارد الطبيعية كالنفط مثلاً.

كما أن مجرد وجود المراكز البحثية في دول الخليج لا يكفي بل لابد من تواصلها مع العالم الخارجي حتى تتمكن تلك المراكز من تحويل نتاج البحث العلمي إلى فرص استثمارية قيمة لتحريك الجمود العلمي في دول الخليج، فمثلاً عشرين دولة عربية ساهمت بـ ٠,٥٥ في المائة من الإنتاج العلمي في العالم بينما إسرائيل بمفردها ساهمت بـ ٠,٨٩ في المائة، وسبق أن أظهرت الجامعة الإسلامية إحصائية قبل فترة بأن دول منظمة التعاون الإسلامي لديها ٨,٥ عالم ومهندس لكل ألف شخص مقارنة مع المتوسط العالمي البالغ ٤٠,٧ عالم ومهندس وتقني لكل ألف، ويرتفع هذا الرقم في الدول الثماني ليبلغ ١٤٠ عالم ومهندس وتقني.

فالعلوم والتعليم الأكاديمي لا يمكن للنقود أن تشتريه بل نحن في أمس الحاجة إلى مناخ وتهيئة بيئة مهنية تهدف إلى عقد شراكات مع الصناعة المحلية، ويجب إدراك أن ثقافة الأبحاث لا يمكن تطويرها عن بعد كما يعتقد بل يجب الاعتماد على الاستحقاق وليس غير ذلك لان الجامعات والمراكز الأخرى تخسر أشخاص أضعاف التي تقوم بتعينهم؛ لأن الأكاديميين بحاجة إلى الوقت الكافي للقيام بالأبحاث ويريدون إن تتم مكافأتهم، وفي قطاع عمل معول مثل القطاع الأكاديمي حيث لا يفضل الأكاديمي التنقل من مكان لآخر مثل انتقال الأعمال، لكن أن يعمل الأكاديمي لعدة عقود ويحرم من الحق في البقاء أمر لا يجعل دول الخليج تتسم بالجاذبية بل يجب أن نفرق بين تكدس العمالة الرخيصة غير

المؤهلة في دول الخليج وبين الأكاديميين والباحثين الذين يفترض تقديم لهم كافة التسهيلات بل وتهيئة البيئة والمناخ المناسبين الذي يساهم في النهاية في توطين التقنية.

فالعلوم لغة عالمية إذ يمكنها إيجاد روابط جديدة بين الأفراد وفتح العقول أمام أفكار تتجاوز نطاق الفصول الدراسية وأمام نطاق الحدود الجغرافية، فنحن بحاجة إلى إعادة تشكيل التعليم والتنمية، فعلى مدار أربعين عامًا ظلت منطقة الخليج متخلفة عن نظرائها الدوليين في العالم، فإجمالي الإنفاق على الأبحاث والتطوير في آسيا زادت حصتها العالمية من ٢٧,٩ في المائة عام ١٩٩٧ إلى ٣٦,٥ عام ٢٠٠٤، واليوم أكثر من ٤٠ في المائة وخلال العقدين القادمين ستخلق آسيا مراكز استقطاب جديدة هامة للابتكار في مجال العلوم والتكنولوجيا كما تتزايد إقامة مؤسسات الملكية الفكرية للتعامل مع الأسواق العالمية في الصين وفي كوريا الجنوبية وفي الهند.

ولكن لماذا قصرت الاستثمارات الحكومية الخليجية في مجال التعليم عن تحقيق أهدافها؟ الإجابة ستكون بكل بساطة هي أن استراتيجيات التعليم لم تكن يومًا مرتبطة بصورة واضحة بأية أهداف اقتصادية وبالتالي لم تتوفر الموارد البشرية بين الخريجين الذين يتم تأهيلهم بعد تخرجهم ويفتقرون لأساسيات ومهارات كثيرة يحتاجها سوق العمل مما يحمل الجهات تكاليف باهظة من أجل التدريب والتأهيل، رغم أن هناك مؤشرات على أن النظام يتحرك نحو التغيير لأن دول الخليج بدأت تضع التعليم من أولوياتها مما تعين عليها أن تخطط بعمق وأن تنفذ استراتيجياتها بحذر، هذه الجهود ستشكل خطوة في طريق استعادة بريقنا العلمي.

وتخطط قطر بأن يصبح الإنفاق على البحث العلمي نحو ٢,٨ في المائة من إجمالي الناتج المحلي الإجمالي خلال السنوات القادمة مرتفعا من ٠,٣٣ في المائة ولا يزال الإنفاق على البحث العلمي في السعودية ٠,٠٥ في المائة والبحرين ٠,٠٤ في المائة وهي أقل دولة خليجية تنفق على البحث العلمي عام ٢٠٠٧.

لأن دول الخليج إذا أرادت أن تتحول من دولة مستهلكة للمعرفة إلى دولة منتجة ومصدرة لها عليها أن تستثمر في العنصر البشري، وأن تبني رؤية المجتمع المبدع هذا إذا أردنا أن ننتقل إلى تصنيع المعرفة وأن نقصر الاستثمارات الأجنبية على تحقيق أجندة بيئية إبداعية في الاتصال والتكنولوجيا والصناعة ذات التقنية العالية بدلاً من مضايقة الاستثمار المحلي والإحلال محله أو منافسته، بجانب أن تهتم دول الخليج بتضمين نظم التعليم الخليجية الخطط المؤهلة للصناعات المعرفية منذ المراحل المبكرة.

ويجب أن يكون لدول الخليج مساهمة في الارتقاء بمجال تبادل المعرفة والفهم بين الشعوب الذي تتبناه اليونسكو اليوم؛ لأن العالم مقبل على تعاون علمي على المستويين الإقليمي والدولي يشكل عاملًا حاسمًا في التصدي للتحديات المترابطة والمعقدة والمتزايدة التي تواجهها الشعوب على المستوى العالمي، وستصبح الدبلوماسية علمية في السنوات المقبلة التي تقود إلى الشراكات الدولية والتعاون، وبذلك يصبح البعد العلمي للعلاقات الدبلوماسية أحد الأسباب التي أدت إلى إضافة العلوم إلى المهام المسندة إلى اليونسكو، ويكتسب هذا البعد أهمية محورية بالنسبة إلى المنظمة لأننا نعيش في عصر تتمتع فيه العلوم بالقدرة على رسم ملامح مستقبل البشرية وفي عصر لم يعد فيه من المجدي التركيز على الاعتبارات الوطنية لصياغة السياسات العلمية.

ومع أن البلدان المتقدمة لا تزال تنتج أكبر عدد من المنشورات العلمية على المستوى العالمي فإن أداء هذه البلدان يتراجع في هذا المجال لصالح دول ناشئة فانخفض عدد المنشورات العلمية من ٨٤ في المائة عام ٢٠٠٢ إلى ٧٥ في المائة عام ٢٠٠٨ فيما تضاعفت حصة الصين في نفس الفترة أكثر من الضعف إذ قفزت من ٥,٢ في المائة إلى ١٠,٦ في المائة، ولا تزال الولايات المتحدة تتصدر الإنفاق على البحث العلمي بنحو ٣٣٠ مليار دولار عام ٢٠٠٦، بينما دول الاتحاد الأوربي الذي يضم ١٥ دولة انفق ٢٣٠ مليار دولار، لكن تأثير الركود العالمي على الولايات المتحدة

كان أكثر حدة من التأثير على بقية الدول الناشئة مما أتاح لهذه البلدان أن تلحق بالركب بوتيرة أسرع مما كان يمكن تحقيقه في غياب الأزمة.

وأكبر مشكلة تواجه دول الخليج افتقارها إلى سياسات وطنية خاصة بالعلوم والتكنولوجيا والابتكار يرغم القطاع الخاص في الكثير من الأحيان على الاضطلاع بأنشطته في ظل فراغ على مستوى السياسات وهي ظروف لا تعتبر مواتية للابتكار إضافة إلى معاناتها من النقص في الروابط بين القطاعين العام والخاص في مجال البحث والتطوير نتيجة الاعتماد على المال السهل المتآتي من العائدات النفطية الذي يعد هو بحد ذاته سيف ذو حدين.

القيود غير الجمركية عقبة أمام تفعيل أي اتفاقية للتجارة الحرة بين الدول الإسلامية:

اتفاقية منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى بدأ تنفيذها مطلع عام ١٩٩٨ واكتملت في مطلع عام ٢٠٠٥ حيث أصبحت عمليات التبادل التجاري بين الدول العربية الأعضاء بدون رسوم جمركية.

ورغم استكمال خطوات إلغاء الرسوم الجمركية بالكامل إلا أن للقطاع الخاص رأي آخر يرى أن هناك قيودًا أخرى غير الجمركية لا زالت تعيق تنفيذ الاتفاقية.

وبالفعل أعدت الأمانة العامة للاتحاد العام للغرف التجارية والصناعية والزراعية العربية تقريرًا مفصلاً حول تلك العقبات التي تراها عقبات أساسية تحد من التأثيرات الاستشارية والاقتصادية المحفزة للتوسع في عملية التكامل الاقتصادي العربي.

وقد ذكر التقرير بعض الأمثلة على ذلك منها القيود المائية على حركة التجارة والأعباء المالية الناجمة عن تخطي نسبة ٤ بالإلف لرسوم الترانزيت وفقًا

لاتفاقية النقل بالعبور بين الدول العربية أو عدم الالتزام بإلغاء رسوم تعريف القنصليات على شهادة المنشأ إلى جانب المبالغة في الرسوم على تحويل العملات التي كانت السبب في استمرار تلك العراقيل، والتي لم تتمكن حتى الآن الدول العربية من إعادة هيكلة سياساتها الاقتصادية بما يتناسب مع الاتفاقية المبرمة والاستفادة القصوى من تحقيق الفوائد التي تجنيها الدول العربية لتعزيز اقتصاداتها.

وأهم عقبة تعاني منها التجارة العربية تتمثل في غياب الشفافية المسؤولة عن إزالة كافة العقبات الموضوعة للالتفاف على بنود الاتفاقية وتحقيق فوائد منفردة تعيق تحقيق الاتفاقية الكبرى المبرمة من انسياب سلس للتجارة العربية النسبية خصوصًا فيما يتعلق بالقضاء على البيروقراطية الإدارية التي من أهمها كثرة البيانات المطلوبة لشهادة المنشأ والمغالاة في التخمين الجمركي وطول مدة العبور على الحدود مع طول مدة إجراءات الفحص وتعقيدات التفتيش بجانب المغالاة في إجراءات الكشف الصحي.

هذا الجانب الذي يخص انسياب التجارة البينية لكن هناك معضلات أخرى تعوق سبل التنمية المستدامة أيضا تتمثل في وضع قيود على العملية الإنتاجية نفسها التي تعزز من انسياب التجارة البينية النسبية للإنتاج العربي.

فتفعيل السوق العربية المشتركة يحتاج إلى دعم وحفز القطاعات الإنتاجية خصوصًا في المجالات المسموح بها في إطار الاتفاقيات الدولية المتعددة لمواكبة المنافسة المتصاعدة ولن يتم ذلك إلا من خلال إنشاء صندوق استثماري للتنمية الصناعية يعد خصيصًا للمشاريع المشتركة القادرة على جذب الاستثمارات الأجنبية والتكنولوجية المتقدمة تهتم بقضايا البحث العلمي والابتكار الذي يصب في تشجيع تحقيق التكامل وبناء التشابكات والتحالفات بين المشاريع لتعزيز القدرات التنافسية خصوصاً المتصلة بالتسويق والتصدير، والتي يجب أن ينصب اهتمام الدول العربية على تهيئة وتأهيل البيئة الاستثمارية التي تقلص التفاوت في التكاليف والأعباء بين الدول الأعضاء، وهي تحتاج إلى تفعيل

تلك الاتفاقية على تأسيس وتكوين مرجعية مشتركة للقضايا الاستثمارية والتجارية تنسق بين الدول العربية ومنظمة التجارة العالمية مع ضرورة إنشاء محكمة استثمار عربية تبت في القضايا العالقة والمستجدة في أسرع وقت من أجل القضاء على البيروقراطية الإدارية المحلية التي تعيق انسياب التجارة وتوسعة القاعدة الإنتاجية. وإنشاء سوق مال عربية مشتركة تفتح المجال أمام المستثمرين العرب للاستثمار فيها بكل شفافية بعيدًا عن جميع أنواع القيود التي تبتكرها البيروقراطية.

أثر انضمام الدول الإسلامية إلى منظمة التجارة العالمية وعقد الاتفاقيات الثنائية قبل قيام منطقة التجارة الإسلامية:

حذر تقرير اقتصادي لجامعة الدول العربية من استمرار الدول العربية على العمل بمبدأ تعدد الاتفاقيات التجارية إقليميا ودوليًا في ظل غياب إستراتيجية عربية موحدة مما شكل مزيد من التعقيدات أمام تنفيذ منطقة التجارة الحرة الإسلامية التي يتوقف نجاحها على إيجاد إستراتيجية موحدة تجاه الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية وكذلك الاتفاقيات الإقليمية الأخرى كمشروع الشراكة الأوربية المتوسطية، ومنطقة التجارة الحرة الشرق أوسطيه نظرًا لتشابك هذه الاتفاقيات.

وحذرت الدراسة من عدم إعطاء اتفاقيات الشراكة الأوربية العربية التزامات تفوق تلك المقدمة إلى منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى أو الإسلامية، حيث ستحظى السلع الأوربية بمعاملة تفضيلية تفوق تلك المقدمة من منتجات الدول العربية والإسلامية، مشيرًا إلى اتفاقيات الشراكة مازالت لا تؤمن النفاذ المطلوب للمنتجات العربية والإسلامية إلى الأسواق الأوربية، وخاصة في مجال المنتجات التي يهم الدول العربية والإسلامية تصديرها .

مساهمة الدول العربية والإسلامية في التجارة الدولية والشراكة الأوربية:

مساهمة الدول العربية في التجارة العالمية لا تزال متواضعة ولا تتعدى ٦,٢ في المائة شاملة النفط الذي يمثل ٧٠ في المائة من صادرات الدول العربية.

في حين نصيب الدول العربية من الاستثمار الأجنبي المباشر لا يتعدى ٠,٨ في المائة من إجمالي الاستثمارات الأجنبية على مستوى العالم ونحو ٩,٢ في المائة من إجمالي نصيب الدول النامية.

وأكد تقرير اتحاد فرق التجارة والصناعة والزراعة العربية لعام ٢٠٠٢م أن مفاوضات الشراكة العربية الأوربية ليس ثمة ضمانات في هذه المفاوضات أو الاتفاقية التي تم التوصل إليها مع بعض الدول العربية بقدوم استثمارات أوربية إلى البلد العربي الشريك بدليل أن إجمالي الاستثمارات لم تتجاوز ٣ مليار دولار مقابل ٣٦٥ مليار دولار تمثل الاستثمارات العربية في أوربا وحسب تأكيد الدكتورة ماريا بوسكو من جامعة بولوني الايطالية أثناء مؤتمر استضافة معهد الدراسات العربية الإسلامية في جامعة البتراء في ٢٠٠٢/٩/٢٥م، تقول: إن الاستثمارات الأوربية في القطاع المصرفي أثبتت اهتمامها بدول شرق ووسط أوربا التي انضمت إليها أكثر من اهتمامها بدول جنوب شرق البحر المتوسط، والشريك الأجنبي يجد في انفتاح الأسواق العربية مكسبًا هامًا له في ظل الشراكة التي يطرحها، إلا أنه لا يأخذ منطقة التجارة العربية الحرة على محمل الجد ويراهن على اتفاقيات ثنائية مع الدول العربية في ظل أحكام منظمة التجارة العالمية، ويؤكد التقرير أن الجدية التي ستظهرها الدول العربية في بناء منطقة التجارة الحرة العربية ستساهم إلى حد بعيد في زيادة اهتمام الشريك الأجنبي لإرسال استثماراته ومهاراته الحديثة إلى الأسواق العربية.

ونتيجة هذه الاتفاقيات الثنائية تتعرض الدول العربية إلى التهميش الذي يفرضه احتدام المنافسة بين المصدرين وكذلك الإجراءات الحمائية التي تفرزها التكتلات الاقتصادية مما يؤدي إلى تراجع سيطرتها على قراراتها. وذلك يمكن أن يفقدها الاستفادة من بنود اتفاقية منظمة التجارة العالمية في ما يتعلق بالفترات

الزمنية الانتقالية والمعاملة التفضيلية الخاصة بالدول الأقل نموًا، وغيرها من بنود قد تستند إليها الدول العربية في إعطاء نفع أكبر لمشروعها العربي.

أثر الانضمام إلى منظمة التجارة العالمية قبل نشوء منطقة تجارة حرة للدول الإسلامية:

ويتساءل الدكتور على ميرزا من برنامج الأمم المتحدة للتنمية في محاضرته عن دور العضوية في منظمة التجارة في تعزيز التعاون بين دول مجلس التعاون الخليجي، مؤكدًا أن العضوية قد لا تنجح في تعزيز التوجه الإقليمي في حال بقيت البنية الاقتصادية على وضعها الحالي حيث أدى الدخل الريعي المرتفع إلى الاعتياد على استيراد مواد استهلاكية يصعب منافستها بإنتاج محلي مما أضعف التجارة البينية.

ويؤكد الدكتور محمد عميرة من وزارة الاقتصاد والتجارة في الإمارات العربية المتحدة فلفت إلى أن الصادرات غير النفطية للإمارات ارتفعت بنسبة ٤,١٢ في المائة سنويًا منذ ١٩٩٦م حين انضمت للمنظمة.

لكنه أكد أن دولة الإمارات تواجه عقبات تجارية من ضمنها إجراءات التصنيف والتقييس التي تطبقها الدول الغنية على الواردات، مشيرًا على سبيل المثال إلى ضريبة الكربون التي يفرضها الاتحاد الأوربي وتضر بصادرات الإمارات.

وتناول الدكتور منذر الشرع من جامعة اليرموك الأردنية أضرارًا عديدة لأثر انضمام الأردن إلى منظمة التجارة على تجاربه الخارجية وتأثر الناتج المحلي سلبيًا في حال ارتفعت قيمة الواردات.

ويؤكد تقرير أعدته الأمانة العامة للشئون الاقتصادية بجامعة الدول العربية بالتعاون مع المنظمة العربية للتنمية الصناعية ونظيرتها للتنمية

الزراعية وصندوق النقد العربية قبل أعمال الجولة المقرر عقده للدول الأعضاء في منظمة التجارة العالمية عام ٢٠٠٣م في المكسيك.

ويستطرد التقرير أن قطاعي الخدمات والمنتجات الزراعية يمسان المصالح العربية بصورة مباشرة وخطيرة نتيجة الثقل المتنامي لقطاع الخدمات الذي بات يستحوذ على ١٠٠ مليار دولار من إجمالي التجارة الخارجية للبلدان العربية وكذلك احتياجاتها الغذائية على الاستيراد التي تجاوزت قيمته في هذا القطاع نحو ٢٠ مليار دولار سنويًا.

وأشار التقرير إلى أنه على الرغم من أن تحرير تجارة الخدمات عالميًا سيتم مرحليًا وعلى مدار سنوات عديدة إلا أن هذه الخطوة بدأت فعليًا حيث وقعت حول ٢٦ دولة ذات تأثير سياسي واقتصادي كبيرين على الاتفاقية المتعلقة بتحرير تجارة الخدمات.

كما أوضح التقرير إن خطورة تحرير تجارة الخدمات على الاقتصاديات الوطنية العربية تكمن في العدد الكبير نسبيًا للقطاعات المدرجة في الاتفاقية المطروحة على المشاركين في أعمال المؤتمر وتضم الاتصالات والخدمات المعرفية والمالية والنقل الجوي والبري وخدمات التأمين والطاقة والتعليم والصحة والبناء والخدمات المرئية والسمعية وخدمات البريد. الأمر الذي يهدد استثمارات عربية بعشرات المليارات من الدولارات الموظفة في تلك القطاعات علاوة على اختراق اقتصاد المنطقة العربية من أوسع الأبواب حيث أن مساهمة هذه القطاعات من إجمالي الناتج العربي تتراوح بين ٣٠ في المائة و ٣٥ في المائة وتزداد هذه النسبة في حالة استبعاد قطاع البترول.

يضفى على تحرير تجارة الخدمات أهمية خاصة باعتبارها أحد أهم القطاعات المؤثرة في الاقتصاديات العربية والجاذبة للاستثمارات في المستقبل القريب.

الحالة الراهنة تبرز أهمية نشوء منطقة التجارة الحرة العربية والإسلامية في بلورة خيارات اقتصادية حرة تعزز القدرة على حماية المصالح

الاقتصادية ومقاومة الضغوط التي تمارسها مراكز الاحتكارات العالمية. فضلاً عن منح الدول العربية موقفًا تفاوضيًا أقوى في مواجهة التكتلات الاقتصادية ومنظمة التجارة أو الأمريكي أو أي تكتل آخر هي إقامة تكتل عربي يتدرج في الانكشاف أمام التكتلات الأخرى ويتطور رويدًا إلى الوصول لوضع تنافسي من خلال الاستثمارات المشتركة المتصاعدة.

ولا يمكن أن تصبح السلع تنافسيه بدون إلغاء القيود الجمركية والتقليل من الضغوط على المنتجين المحليين وبالتالي تساهم المنافسة في تحسين الإنتاجية فضلاً عن تركز الاستثمارات في أكثر القطاعات الأكثر تنافسية.

تبنى مبادرات مع الدول النامية في الجنوب :

إن تبنى مبادرات عاجلة بالإضافة إلى قيام منطقة التجارة العربية الكبرى التنسيق بينها ومع بقية الدول النامية للاستفادة من تناقض المصالح بين الدول الصناعية في مفاوضات الزراعة، وضمان عدم تكرار تجربة تحرير المنتجات الصناعية التي ضاعفت الأعباء على كاهل الدول النامية من دون طائل.

مثل التعاون بين دول الجنوب والذي حضره ممثلو الدول الـ ١٣٤ الأعضاء في مجموعة الـ ٧٧ والصين في مراكش في ١٩ ديسمبر ٢٠٠٣م، والذي سمي (بإعلان مراكش)، وهو الاجتماع الثاني بعد الاجتماع الأول الذي عقد في هافانا قبل عامين وسوف يعقد الاجتماع الثالث عام ٢٠٠٥م.

وشدد المؤتمرون على بناء نظام تجاري عالمي عادل واستفادة الجميع من الدعم المالي للبلدان المتقدمة والمنظمات الدولية وخبرة البلدان الأقل نموًا.

والهدف منه تحقيق مقاصد التنمية وأهم ماتوصل إليه المؤتمر هو إنشاء شركات مشتركة بين البلدان النامية قصد عرضها على أقطار قمة الجنوب.

دور البنك الإسلامي للتنمية في إنشاء سوق إسلامية مشتركة:

كانت النظرية الكلاسيكية (نظرية النفقات النسبية) تؤكد بأن قوى السوق التلقائية كفيلة بأن تحقق توازن التجارة الدولية من خلال توجه الهياكل الاقتصادية الدولية في اتجاه التخصص ناحية القطاعات ذات الوفرة النسبية في عناصر الإنتاج. لكن التجارب الدولية أثبتت أن نتائج تلك النظرية تتجه بصفة مستمرة لصالح الهياكل الاقتصادية الأقوى أو الأكثر تقدمًا حتى أصبح التبادل الدولي بصورته المطلقة تبادلاً غير متكافئًا يساهم في المزيد من التخلف والفقر للدول النامية والفقيرة والمزيد من التقدم والغنى للدول الغنية والمتقدمة، وتعتبر الدول الإسلامية أحد النماذج التطبيقية الحية على نظرية التبادل اللامتكافئ، شهدت تدهورًا واضحًا في معدلات التبادل التجاري الدولي مع العالم الخارجي انعكس على موازين مدفوعاتها وبالتالي على دخولها الوطنية وعلى حركة التنمية فيها بصفة كاملة مما أدى إلى زيادة مديونيتها، فضلاً عن ارتفاع أسعار الفوائد الدولية التي زادت من تكلفة خدمة المديونية الخارجية.

ولم تتوقف المشكلة عند اتساع الهوة بينها وبين الدول المتقدمة وإنما انقلبت إلى ظهور فجوات في العلاقات القائمة بين الدول المتقدمة ومعها.

ومن هنا بدأت تظهر في الأفق التكتلات الدولية المختلفة ومن أهمها أوربا الموحدة التي وصل عدد أعضاؤها إلى ٢٧ عضوًا، ومنظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا) وغيرها من التكتلات الأخرى.

بينما لا توجد منظمة اقتصادية تضم جميع الدول الإسلامية رغم إننا نمتلك أهم أسس وقواعد وركائز هكذا منظمة تدافع عن مصالح المسلمين الاقتصادية كما في قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} التوبة: ٧١ {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} الحجرات: ١٠ {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}آل عمران:١٠٣.

وقد اضطلع دور البنك الإسلامي للتنمية منذ إنشائه القيام بالعديد من المبادرات من أجل تعزيز التعاون بين الدول الأعضاء ووضع كثير من البرامج لتعزيز الروابط الاقتصادية.

ومن بين الجهود التي تذكر في هذا المجال: تعزيز التجارة، وتقديم الدعم لتقوية أواصر التعاون بين البنوك الإسلامية وغيرها من المؤسسات التمويلية الإنمائية والمعاملة التفضيلية للمشاريع الإقليمية، وإعداد مشاريع نموذجية توخيًا لتقوية الآثار الإيجابية لدى الدول الأعضاء الأخرى وتعزيز التعاون الفني، ونقل التكنولوجيا، وشراء المعدات والخدمات من الدول الأعضاء، وتنمية الخدمات الاستشارية في الدول الأعضاء كما في خطة البنك الإستراتيجية متوسطة الأجل، التي صادق عليها مجلس المحافظين في عام ١٩٩٤م.

وأقرت مؤخرًا خطة العمل الإستراتيجية لمجموعة البنك ساعية إلى توثيق العلاقات الاقتصادية والمالية بين الدول الأعضاء في الوقت الذي تواصل فيه دعم ومساعدة التنمية الاقتصادية والاجتماعية لتلك الدول عامة.

وتحقيقًا لهذا الهدف، طورت مجموعة البنك مجموعة من الأنشطة التي تتراوح ما بين تشجيع التجارة البينية والاستثمارات بين الدول الأعضاء، وتعزيز التعاون الفعال، وتشجيع مشاركة القطاع الخاص في التنمية الوطنية، وإقامة صلات وعلاقات عمل وثيقة مع المنظمات الإقليمية، وشبه الإقليمية والدولية التي تشارك فيها أيضًا الدول الأعضاء في البنك.

وساهم بنك التنمية في عقد فعاليات مؤتمر التبادل التجاري الحر بين الدول الإسلامية تحت عنوان (منظمة التبادل الحر لمنظمة المؤتمر الإسلامي كخطوة لإنشاء السوق الإسلامية المشتركة) من أجل اتخاذ خطوات حقيقية لتعزيز التكامل بين الاقتصاديات الإسلامية، وإنشاء السوق الإسلامية المشتركة كتكتل اقتصادي قادر على خلق اقتصاديات متكاملة وغير متماثلة وتقسيم العمل بين الدول الإسلامية حسب الميزة النسبية لكل منها.

وناشد المشاركون من خلال إعلان البحرين الاقتصادي في ٢٠٠٥/٢/٨ م الدول الأعضاء لطرح رؤية إنمائية جديدة وبلورة إستراتيجية اقتصادية مشتركة قادرة على مواجهة التحديات والتطورات العالمية المتسارعة وإعطاء القطاع الخاص دوره الطبيعي والطليعي في جهود وبرامج التنمية، وتهيئة المناخ

المؤسسي والتشريع الملائم لإطلاق طلبات هذا القطاع كمنطلق أساسي لتحرير النشاط الاقتصادي في الدول الإسلامية، ولكن هذا لم يتحقق حتى الآن بسبب ظروف سياسية كثيرة تحاصر المنطقة حتى مجئ ثورات الربيع العربي في عام ٢٠١١.

وأهمية دور البنك الإسلامية للتنمية تشمل أيضًا تحسين آلية الصكوك الاستثمارية (السندات المالية الإسلامية) والتي من شأنها أن تتيح المجال للمستثمرين في الحصول على الأموال اللازمة لتمويل وتنمية المشاريع الاستثمارية في الدول الأعضاء بالبنك للتنمية، كما تمثل مصدرًا هامًا لرأس المال الإسلامي الضروري للاستثمار في المشاريع المطابقة للشريعة من خلال دوره متكاملة لحشد الرساميل واستخدامها على النحو الأمثل.

ويمكن أن يوجه البنك دعوة إلى المصدرين والبنوك والمستثمرين للاستفادة من برامج المؤسسة الإسلامية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات، وذلك لتنمية الصادرات والاستثمار على المستوى الفردي والجماعي لاقتصاديات البلدان الإسلامية.

ولا يقتصر دور البنك فقط على تحرير التجارة، بل يسعى إلى المواءمة وتحقيق الانسجام المطلوب بين السياسات ذات الصلة بالاستثمار مثل تنمية البنية التحتية وتنمية الموارد البشرية، بالإضافة إلى المساهمة بشكل كبير على زيادة القدرة الإنتاجية، وتنمية الموارد البشرية التي تساهم في زيادة تنمية الصادرات وذلك من خلال تبني سياسات تجارية مفتوحة.

والبنك الإسلامي للتنمية يركز على بناء تكتل اقتصادي إسلامي وتقديم توصيات جلسات عمل المنتديات التي يجمع فيها مفكري الأمة وفقهائها للقمم السياسية لقادة الدول الإسلامية من أجل توسيع وتنويع قاعدة التبادل التجاري البيني بين الدول المشاركة باعتبارها عاملاً من عوامل النمو في بعض الأجزاء على المستوى الاقتصادي العالمي، والتي زادت ضعفي زيادة النمو من معدل حجم التجارة في الإنتاج بالعقدين الأخيرين بسبب التقدم التقني وخفض الحواجز

الجمركية وغير الجمركية، ساهما في تحقيق الإنتاج المضاعف، بالإضافة للإرباح، ونتج عن ذلك تحقيق الفوائد للدول الأعضاء بالبنك الإسلامي للتنمية، وتلك الفوائد تشكل تكتلاً اقتصاديًا قائمًا بذاته، يساعد على إنشاء سوق تجارية مشتركة خاصة وأن العالم ينظر إلينا كأمة إسلامية واحدة لها حضارة مشتركة تجمع الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي أسوة بالتجمعات الإقليمية والتكتلات الاقتصادية العالمية العملاقة بدلاً من تكريس السياسات القطرية الضيقة ووضع أسس التعاون الاقتصادي الإسلامي للاندماج في النظام العالمي الجديد (العولمة) من أجل رفع حصتنا من صادرات العالم البالغة ٦ في المائة لتتناسب مع عدد سكانه البالغة نحو ٢٥ في المائة من سكان العالم.

المبحث الثاني: عالمية الإسلام والعولمة

عالمية الإسلام والعولمة:

عالمية الإسلام سبقت العولمة بشمولها واتساعها واعترافها بالتنوع والتعدد إثراء من أجل الوصول إلى المشتركات وحفظ الحقوق والتعايش ونبذ الخلاف وترك حكمه إلى الله {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} الشورى: ١٠.

فالعولمة نتاج تطور جهد بشري تحمل صفة الإيجابية والسلبية، وإن كانت هي لا تزال مفتوحة على تعدد التأويلات والتسويغات بدلاً من حصرها في منظومة فكرية مغلقة وجامدة.

ومهما يكن فإن العولمة انبثقت وتنامت في محيط الاقتصاد الليبرالي الغربي وهي بذلك تعد نسقًا جديدًا لا يمكن إغفال طابعها الإيديولوجي ويغلفها الشكل التكنولوجي والاقتصادي، وتحمل طابعًا أساسيًا وهو التوسع الهيمني كمحدد أساسي لها.

وإزاء ظاهرة العولمة اقترحت أطراف فكرية من النخبة العالمية ممثلة في منظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) وثيقة انطلقت عام ٢٠٠٥ بمثابة موقف وسط بين دعاة عولمة بلا حدود وبين دول معرضة للاكتساح واعتبار العولمة بتبنيها مبادئ السوق قد خلقت ظاهرة انعدام المساواة وأدت إلى زيادة اختلال التوازن بين الأغنياء والفقراء وهذه النخبة تدعو إلى تقاسم شعور الانتماء المشترك في إن معا وإن جميع المجتمعات مدعوة إلى التوفيق بين المطلب المزدوج للوحدة والتنوع.

فعالمية الإسلام تدعو إلى التنوع كإثراء تراكمي يضاف إلى ما سبق من أجل الانفتاح المنصف والمتوازن مع حفاظها على وحدة المجتمع الإنساني

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود: ١١٨] أي خلقهم على الحق ولا يمكن أن يستمر الاختلاف إلا إذا استخدم البغي واتبع الهوى {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [البقرة: ٢١٣]

{وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ} [البقرة: ٢١٣].

هذه هي عالمية الإسلام التي تحافظ على التنوع كإثراء وتدعيم للحق والحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع بشروط ثلاث أولها إتباع الحق المنزل والاحتكام إليه وثانيها الابتعاد عن إتباع الهوى وثالثها الحذر من ممارسة سلوكيات البغي والتعدي على الآخرين تلك هي صفات عالمية الإسلام التي تختلف عن العولمة المؤدلجة.

العولمة والفقر:

ليس العالم منقسمًا إلى ٢٠٠ دولة فحسب، بل أيضًا إلى دول غير متكافئة تقف وراء الاختلافات الكبيرة جدًا اليوم في مستويات دخل الفرد الحقيقي.

فالفقر في تصاعد فالعالم الاقتصادي أنجوس ماديسون قال عام ١٨٢٠ إن أكثر اقتصاد متقدم في ذلك الوقت كان أكثر غنى خمس مرات عن أفقر اقتصاد وبعد قرن من الزمان تضاعفت نسبة الفقر وأصبحت بحلول عام ١٩١٣ بنسبة ١٣: ١ ثم تضاعفت ثلاث مرات خلال أقل من نصف قرن وصلت النسبة إلى ٣٣: ١ في عام ١٩٥٠، وبعد خمسين عامًا أو أكثر قليلاً تضاعفت النسبة أيضًا ثلاث مرات وأصبحت ١٠٠: ١، فالفقر في العالم في تضاعف تراكمي فتحول من ٥: ١ إلى ١٠٠: ١ أي عشرين ضعفًا وهذا بين الدول ولكن بين الأفراد هناك زيادة في عدد الفقراء وزيادة في عدد الأغنياء والفجوة تتسع بازدياد.

فعقد اجتماع في الأمم المتحدة تحت اسم اجتماع القمة الألفية في عام ٢٠٠٠ والذي جعل القضاء على الفقر أحد أهدافه، وتعهده بأنه بحلول عام ٢٠١٥ سيتم خفض عدد الذين لا يتجاوز دخلهم اليومي أقل من دولار بنحو النصف

وكذلك العمل على الحد من أعداد الناس الذين يعانون من الجوع. فإذا كان الفقر ازداد بشكل مخيف يهدد مستقبل العولمة نفسها.

لقد انقضت ٦٠ سنة منذ مؤتمر بريتونوودز الذي تمخض عنه إنشاء صندوق النقد والبنك الدوليين وانقضت ٥٧ سنة منذ مؤتمر هافانا الذي تمخض عنه (الجات)، وفي الفترة ١٩٥٠ – ٢٠٠٢ تضاعف حجم التجارة العالمية ٢٤ مرة، وتضاعف الناتج الإجمالي العالمي سبع مرات فيما تضاعف الناتج الإجمالي العالمي سبع مرات فيما تضاعف متوسط الفرد من الناتج الإجمالي العالمي ثلاث مرات.

وهذا يثبت إمكانية توسع التجارة والاقتصاد العالمي بشكل تاريخي غير مسبوق رغمًا عن الانقسامات والتشرذم السياسي العالمي.

مجرد القول إن التجارة تدعم النمو، والنمو يقلل من الفقر، قد يكون صحيحًا من الناحية النظرية، ولكن الواقع غير ذلك.

وسوف يجتمع زعماء العالم في خريف عام ٢٠٠٥م في الأمم المتحدة لمراجعة التقدم الذي تم إجراؤه منذ اجتماع الألفية في سبتمبر ٢٠٠٠ عندما تعهد الزعماء بمساندة مجموعة من الأهداف الطموحة لمساعدة أفقر سكان العالم في محاولتهم من الإفلات من الفقر والجوع والمرض والأمية.

ويقدم البنك الدولي تحليلاً حذرًا عن التنمية يقول بأن عدد الناس الذين يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم انخفض من ١,٤٥ مليار نسمة في ١٩٨١م إلى ١,١٠١ مليار في ٢٠٠١ كما هبط عدد الناس الذين يعيشون في فقر مدقع في شرق آسيا من ٦٠٦ ملايين إلى ٢٦٢ مليون خلال الفترة المشار إليها. إن نحو ٣٠ دولة نامية يبلغ عدد سكانها نحو ثلاثة مليارات نسمة إلى نصف سكان العالم منخرطة في عملية التنمية وخاصة في العملاقين الصين والهند اللذين يشكلان ٣٨ من سكان العالم عام ٢٠٠٢ .

وعلى عكس هذه الدول هناك ٥٤ دولة يبلغ سكانها ٧٥٠ مليون نسمة شهدت تراجعًا في متوسط الفرد الحقيقي في أفريقيا وعلى نحو مشابه تواجه

أجزاء شاسعة من أمريكا اللاتينية وآسيا الوسطى ارتفاعًا وليس انخفاضًا في معدلات الفقر.

فإذا كانت الدول الآسيوية بدأت تخرج من دائرة الفقر بل إن انتقال التصنيع إلى خارج الدول المتقدمة إليها بدأ أنصار العولمة مهتمين بالآثار الضارة للعولمة على اقتصادهم وهي مثل التحول التكنولوجي الذي يحسن من الإنتاجية مما يؤدي إلى زيادة الأرباح وكل ما يؤدي إلى زيادة الأرباح لابد إن يكون مفيدًا للاقتصاد الأمريكي. فهذه الدول الآسيوية بدأت أسواق تنافسية تنافس الدول المتقدمة.

ولكن كيف تخرج بقية الدول التي يزداد الفقر فيها فهل يكفي جدولة ديونها أو سدادها أم أنها تحتاج إلى نوع آخر من المساعدات خاصة العامل الجغرافي في أغلب الأحيان يلعب دورًا بالغ الأهمية فيما يتعلق بالنجاح أو السقوط في هوة الإخفاق.

فإذا كانت قصص التنمية الناجحة تتمركز في أماكن مثل شنغهاي أي المدن الساحلية ذات الموانئ والطريق المفتوح إلى الأسواق العالمية وغالبًا ما تكون أضخم قصص الفشل التنموي في المناطق الريفية البعيدة أو الصحراوية المنعزلة أو المجتمعات التي تعيش في مناطق جبلية وعرة مثل جبال الإنديز أو آسيا الوسطى أو هضاب شرق أفريقيا فهي منعزلة على نحو خاص.

فالعزلة الجغرافية أشد صرامة إذا كانت في الدولة مغلقة مثل بوليفيا وأفغانستان أو بوركينا فاسو علاوة على العزلة فإن مشكلة الجفاف هي من أكبر مشاكل الفقر كما في أفريقيا لأن المزارعين يعتمدون على الأمطار أكثر من اعتمادهم على الري، فالمعونات المقدمة من صندوق النقد الدولي وقتية لا تعالج الفقر إلا بالمساعدات عن طريق التنمية المستدامة. فإذا كانت الدول الغنية وعدت منذ ٣٥ عامًا باستقطاع ٠,٧ في المائة من إجمالي الناتج المحلي لديها وضمه للدول الفقيرة في هيئة معونات للتنمية. لكن الدول الغنية لم تستقطع سوى ٠,٢٥ في المائة من إجمالي ناتجها الأمر الذي أدى إلى عجز ١٢٠ مليار دولار سنويًا والولايات

المتحدة مسئولة عن نصف ذلك العجز الكلي فهي لا تقدم سوى ١٥ مليارًا سنويًا فقط.

ففشل التنمية الاقتصادية في مناطق الفقر في العالم يساهم إلى حد كبير في انتشار عدم الاستقرار في العالم وتفشي حالات العنف وتهريب المخدرات ولن تحل مشكلة الإرهاب بالحسم العسكري؛ لأن جذور المشكلة تكمن في سهولة سقوط الفقراء والجوعى تحت تأثير زعماء العنف والكراهية في العالم وسهولة تبني الأفكار المتطرفة.

لقد كان اقتراح براون وزير المالية البريطاني في ما يسمى بهيئة التمويل الدولي IFF في ضمان مضاعفة الدول المانحة للمعونات التي تقدمها في غضون العقد المقبل حتى تتمكن الدول الفقيرة ذات الحكومات الرشيدة من وضع الاستثمارات اللازمة أو المعونات المستلمة تحت إشراف البنك لتحقيق أهداف التنمية في الألفية الجديدة لقد كان براون مصيبًا حينما قال: فلنضع أفريقيا والمناطق الفقيرة الأخرى على أول الطريق نحو النمو الاقتصادي الثابت.

فالدعوة لعولمة أكثر عدلاً ورحمة بالفقراء هي دعوة لإرساء قواعد لعالم أكثر سلامًا وازدهارًا أمر يصب في مصلحة الجميع ولكي تكون العولمة من أجل الجميع.

عالمية الإسلام منحت الإنسان هوية جديدة:

أكدت نصوص القران الكريم والسنة النبوية المطهرة على تكريم الإنسان أيًّا كان مؤمن أو كافر {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} [الإسراء:٧٠] وأكدت السنة النبوية المطهرة على تكريم النفس البشرية حتى وإن كانت من غير الديانة الإسلامية فعندما مرت جنازة فقام لها الرسول صلى الله عليه وسلم فقيل له إنه يهودي فقال: أليست نفسًا.

وجعل الإسلام هذا التعدد آية من آيات الله {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [آل عمران: ١٩٠] فعالمية الإسلام تتعامل مع شعوب العالم من هذا المنطلق على اعتبار إن الإنسان جزء من هذا الكون جعله الله مفضلاً على سائر المخلوقات {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء:٧٠].

وهذا التفضيل للنفس الإنسانية عدها الله أمة واحدة قبل أن تفرقها الأهواء والمصالح {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [البقرة: ٢١٣].

وأرسل الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم إلى الناس كافة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} [الفرقان :٥٦]، فهذه الشمولية للناس تفرض على المسلمين التواصل والتعاون مع جميع الشعوب حتى يكون العالم مجالاً رحبًا للتبادل وأعمار الأرض، وهي فرصة حقيقية لإيصال رسالة الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة بعيدًا عن الإكراه والعنف {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة : ٢٥٦] {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل : ١٢٥].

فمنذ مجئ الإسلام منح الإنسان هوية جديدة غير قائمة على التمييز والتصنيف أو على أسس عرقية أو دينية أو لونية وإنما قامت على الاعتراف بالإنسان ذلك المخلوق الضعيف والعجول {يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] {وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا} [الإسراء:١١].

ورغم خصوصية امة الإسلام بجعلهم شهداء على الناس {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة:١٤٣] {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات:١٠] إلا إن هذه

الخصوصية لم تلغي خصوصيات الشعوب الأخرى غير المسلمة باعتبارها آية من آيات الله ولا يحق لأي مسلم إن يفرض هذا الدين على أي إنسان بالإكراه.

ويفترض أن تكون الأمة الإسلامية نموذجًا للأمم ولكن إذا فرقتها الأهواء تبقى عالمية الإسلام هي النموذج الحق المفتوحة على العالم ويمكنها أن تستوعب جميع الأجناس والألوان والطبقات وتحتضن جميع الفئات غير المسلمة وتعيش كلها تحت راية الإسلام كما فعل عمر بن الخطاب مع الشيخ اليهودي عندما قال: (ما أنصفناه إذا أخذنا منه الجزية شابًا ثم نخذله عند الهرم) فالتكافل الاجتماعي للجميع ولكن كثيرًا من المسلمين لم يدركوا حقائق هذا الدين السامية الذي أتى رحمة للعالمين ما يجعل بعض الفئات من المسلمين نتيجة جهلهم في فهم أصول دينهم الحنيف يجعلهم يعيشون في أزمة.

عالمية الإسلام دعوة إلى السلم والتعايش:

تدعو عالمية الإسلام إلى الاعتراف بالآخر اعتراف تعايش من أجل الاندماج داخل المجتمعات وهي ضد الدعوى إلى العزله والقوقعة وتؤمن بإتاحة الفرصة وفتح المجال للجميع من أجل المشاركة وهي دعوة مضادة للخطابات المتشددة التي تتردد من الجانبين سواء من جانب المسلمين أو من جانب غير المسلمين. فخطابات المتشددين من المسلمين أو الليبراليين لا تخدم التعايش والاندماج بل هي دعوة إلى الصدام والعدوان وإلى افتعال الفتنة وإثارة النعرات العنصرية والطائفية والمذهبية وهي التي ساندت إلى ظهور نظريات صدام وصراع الحضارات على مر التاريخ.

بينما عالمية الإسلام تقطع الطريق على كل من يدعو إلى هذا الصدام أو إلى هذا الصراع الذي لا يخدم أحدًا من البشر.

لأن عالمية الإسلام تتصف بالسماحة وتسمو بإنسانية البشرية جمعاء، وتدعو إلى تعزيزها بين البشر من خلال مشتركات عديدة من أجل التعاون والتكامل فالدعوة إلى الانعزال والتقوقع من الغلو في الدين حذر منها الإسلام سواء أكانت من المسلمين أو من غيرهم {قُلْ يَا

أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ} [المائدة:٧٧]، وفي حديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "هلك المتنطعون كررها ثلاث مرات" ، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ينصف غير المسلمين وبمتحد صفاتهم الحميدة فقال: "ولدت في زمن الملك العادل" يقصد كسرى ملك الفرس الذي كان يدين بالوثنية في ذلك الوقت فلم يمنع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من إعطائه حقه في الدنيا كما امتدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - الروم فقال: "أنفعهم لمسكين" لذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧].

فالدعوة إلى التعايش والاندماج سمة من سمات عالمية الإسلام التي تقطع الطريق على خطابات التطرف التي دائمًا ما يرددها كثير من المتطرفين من المسلمين وغير المسلمين.

فعالمية الإسلام ليست فقط دعوة إلى التعايش بل مسئولة عن معالجة الاحتقانات التي ينصب شباكها الغلاه والمتنطعون في الدين من جميع الديانات.

وسبقت عالمية الإسلام الديانات الأخرى في التأقلم مع كل ما هو حديث في حين وقفت الكنيسة عهودًا طويلة ضد العقل والعلم والتقدم والحقوق الفردية وقيم السوق.

والآن نفس الغرب المتقدم يسعى إلى قطيعة خطيرة ومتنامية بين الغرب والإسلام خصوصًا بعد تزايد الأحزاب اليمينية المتطرفة التي تستند إلى القيم الدينية في برامجها السياسية والمجتمع مستغلة القوى المناهضة للديمقراطية والعولمة في العالم الإسلامي الذي ارتفع صوتها وتزايد نفوذها.

فعالمية الإسلام لن تترك تلك التيارات المتعصبة هي التي تقود في المدى المنظور الفتنة الدينية داخل العالم الإسلامي نفسه السائدة في الوقت الحاضر ما بينه والغرب.

إن الإسلام المشوه الذي قدمه البعض ليس هو الإسلام السمح، إسلام التعايش والمحبة الذي أتى به سيد البشر محمد - صلى الله عليه وسلم -، ورحبت

به أمم العالم قاطبة لأنها عرفت أنه دين لا يدعو إلى التشنج والاعتداء {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠] ودين تعايش مع البشرية قاطبة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا} [الحجرات:١٣]، ودين يدعو إلى الله بالحسنى {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت:٤٦]، وقفينا مع الجميع بكلمة واحدة في الأصل { تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ} [آل عمران:٦٤]، وإذا رفضوا الاستجابة فتكون النتيجة هي {فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤]، دون محاربتهم وإكراههم على الدخول في دين الإسلام إيمانًا بقاعدة {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦]، فالمهمة في عالمية الإسلام ليست إنهاء الآخر بل هي إنقاذه من الصلاة وإدخاله الجنة بالهداية لا بالإكراه ولذلك دائمًا ما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرشد أصحابه وأمته: "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"، وكذلك في قول آخر: "بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا"، فعالمية الإسلام أول ما تدعو إليه نشر الأمن والطمأنينة لكافة البشرية؛ لأن الإسلام دين قيادة وأوسع من آفاق المقصرين عن فهمه وهو فوق المنتسبين إليه حتى ولو أصر الرعاع والغلاة على تقديم صور مشوهة استغلها أعداء الإسلام لإيقاف المد الإسلامي لأنه دين فطره إذا ما وصل بصورته الحقيقية ما أسرع نمو الإسلام وتمدده. فعلى الدعاة إلى الله تصحيح صورة الإسلام أولاً قبل الدعوة إليه وأن نعيد الأمن والطمأنينة لهم حتى في السفر في الطائرات حتى لا يستعيدوا في أذهانهم ما قرؤوه وسمعوه عن مفجري الطائرات في ١١ سبتمبر.

إنسانيات عالمية الإسلام:

الإسلام هو السلام والرحمة لكافة البشرية {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [يونس:٢٥]، وفي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" فالناس عبارة تطلق على المؤمن والكافر أي على كافة البشرية، كما في قول الله سبحانه وتعالى

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١]. فالرقيب الوحيد على كافة البشر هو الله وليست للبشر رقابة لبعضهم على بعض ولكن هناك دفع ضد الظلم والعدوان لإيقافه {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١]، وفي الآية تنبيهًا وتذكيرًا إلى أصل البشر وتوجيهًا إلى ضرورة التعاطف لما بينهم من الصلة المشتركة في الرحم بسبب أنهم من أب واحد وأم واحدة وهي دعوة إلى التواصل والتعارف والتكامل ناهيه عن الانفصال والتقوقع والتصنيف الذي يغرس العداوة والبغضاء.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قص علينا وحذرنا من كيد الكائدين فالحكمة من ذلك هي تبيان وتحذير للمؤمنين من إتباع سلوك المنحرفين السابقين والحذر من كيدهم في إيقاف الدعوة {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء:٢٦]. لأن الأصل في الإنسان خلق ضعيفًا لا يمكن أن يتعايش إلا بالتعاضد والتكاتف والإحسان المتبادل بين البشر {يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء:٢٨].

وبناءً على ذلك لا يحق لأي إنسان سواء أكان مؤمنًا أو كافرًا إن يزكي نفسه على

الله{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [النساء:٤٩].

مثلما رفض الله قول اليهود والنصارى بحظوتهم الخاصة عنده دون البشر

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة:١٨].

ومسؤولية المسلم هي الإعراض عن كفر البشر بالرسالة المحمدية والاكتفاء بوعظهم وعظًا بليغًا مؤثرًا في الأنفس لإقامة الحجة عليهم {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٣]. السبيل الوحيد مع غير المؤمنين هو التبليغ وترك إيمانهم لله سبحانه وتعالى {مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة:٩٩]. والجميع محاسبون من الله على ارتكابهم السيئات {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٢٣]. وحكمة الله اقتضت أن تجعل لكل أمة منهجًا خاصًا بها {أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة:٤٨] أي مختلفة في الأحكام ومتفقة في التوحيد واختلاف الشرائع هو امتحان واختبار لكل أمة من الأمم في القيام بشرعها والمآل الأخير إليه سبحانه وتعالى في المصير والحكم لذلك أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نعدل بين جميع البشر حتى وإن كان الحكم ضدنا ويصب في صالحهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِ

ن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَاتَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:١٣٥]. وأثناء إقامة العدل بين البشر نهانا الله أن نتبع الهوى، بأن لا ننحاز إلى فئة المؤمنين أو الأقربين وهذه هي محكمة العدل الدولية في الإسلام التي لا تفرق بين جنس ولا دين ولا حتى أقرب الأقربين حتى ولو كان الوالدين بل من قمة عدله أمر المسلمين أن يعدلوا حتى مع أعدائهم واعتبر ذلك العدل من التقوى الذي هوا على مراتب درجات الإيمان

{يَاَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:٨].

وقد اهتم الإسلام بالحيوان وغفر الله لبغيا بسبب سقيها كلبًا كان يلهث عطشًا سارعت إلى إنقاذه من الهلاك والعكس من ذلك كان من نصيب امرأة النار بسبب أنها حبست هرة لأنها لم تطعمها أو تتركها تأكل من حشاش الأرض.

فإذا كان الإسلام يرفق بالحيوان فمن باب أولى إن يرفق بالإنسان وعندما قدم ذو القرنين المساعدة والعون لم يشترط الإيمان {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا} [الكهف:٩٤]،

وقول الله سبحانه وتعالى

{اعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْ مَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء:٣٦]، وهذه الآية تشمل الناس جميعهم ولم تشترط إيمانًا، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعاود جاره المريض وكان يهوديًا ويواسيه في مصائبه وأحزانه؛ لأن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله الكريم رحمة للعالمين {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الانبياء:١٠٧] لإبلاغ رسالته إلى كافة البشرية فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليه كفره، وهذه الرحمة هي مسارعة إلى تفريج كرب الآخرين وقت الكوارث

والحروب والمجاعات والأوبئة بحسب الحال والقدرة وهي أصل أساس لا يمكن تبليغ الرسالة إلا بها فالرحمة تنفي الحصر بل تشمل الجميع، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يشكر الله سبحانه وتعالى نيابة عن البشرية كافة فكان يقول: "اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر".

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يحمد ربه بالنيابة عن كل أفراد الأسرة البشرية؛ لأنه رحمة للعالمين ويسوؤه أن ينزل بهم ضر أو سوء بل سئل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أي الإسلام خيرًا فقال: "تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"، فإطعام الطعام وإقراء السلام ليس محصورًا على طائفة من المسلمين بل هو عام على جميع أفراد البشرية هذه هي إنسانيات عالمية الإسلام.

فمنابع العمل الخيري الإنساني شاملة للعالمين وهي أحد الوسائل الفعالة في تبليغ الدعوة وفي وصولها للبشرية كافة وإشاعة سماحة الإسلام ومبادئه وقيمه الشاملة. فالحضور العالمي للمسلمين خاصة في هذا الوقت فرصة وواجب إسلامي لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام ونبذ وصم الإرهاب عنه أو عن المسلمين التي يقوم بها نفر منهم من أجل التفريق بين المقاومة في الدفاع عن حقوق المسلمين المغتصبة والإرهاب المتمثل في الاعتداء على الآخرين غير المعتدين.

فالإنسانية مشترك يتوافق فيها البشر على ما يصيبهم من مآسي وكوارث وأحزان التي تحدث للبشرية في جميع أنحاء العالم ووجوب الاشتراك في مواساتهم وإغاثتهم والوقوف إلى جانبهم؛ لأن العالم في الأصل هو دار سلام لا يمكن الحفاظ عليه إلا عن طريق التعاون {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف:٥٦] لكي نساهم في استقرار هذا العالم والحفاظ عليه من الفساد الذي يتسبب فيه مجموعة من البشر عن طريق التلوث النووي والصناعي والحضاري ويؤدي إلى إخلال التوازن البيئي الذي هيأة لنا الله

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١] فبالتعاون المشترك يمكن أن نحافظ على استمرارية صلاحية هذا الكوكب الذي وهبه لنا الله لأعماره والسكن فيه من أجل عبادته سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة:٢٠٨] بصيغة العمل هو العمل الجماعي ضمن منظومة الأمم وبه تتحقق حالة الانتماء إلى الإنسانية كلها والتي لا تتعارض مع حالة الانتماء الوطنية أو الأخلاقية بل هي تتعاضد وتتكامل معها من أجل إسعاد البشرية.

كل هذا لا يسمح لنا أن ننطلق من منطلق التحيز، وإن كنا نعذرهم إن تحيزوا ضدنا فعالمية الإسلام هي الوارث لكافة الرسالات وتؤمن بوحدة البشر الشمولية على عكس عالمية الغرب أو عولمة الغرب ذات المركزية الغربية فعالميتنا عالمية الرحمة التي لا تنطلق من خصوصية جغرافية أو بشرية.

وإذا ختمت النبوة برسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - {مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء:١٥] فأصبحت هذه الأمة مسئولة عن تعويض البشرية بإرسال الأنبياء والرسل بتحمل تبليغ الرسالة إلى هذه الأمم عن طريق تجديد الخطاب الإسلامي وجعله في متناول عقول وإفهام أمم الأرض كلها.

خطورة أيدلجة عالمية الإسلام:

مصطلح عالمية الإسلام سابق لمصطلح العولمة، وتختلف مفاهيمهما، ومصطلح العولمة (التكامل) مشتق من مفاهيم عالمية الإسلام، ومفاهيم عالمية الإسلام تعني الرحمة {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]، وهذه

الرحمة لا يمكن أيدلجتها من قبل أشخاص أو جماعات مهما كانت صفتها ومكانتها، وتنتشر عالمية الإسلام عبر وسائل سلمية وعبر قوى كامنة قد لا يدركها أو لا تستطيع أي قوى مهما أتيت من قوة أن تمنع انتشار عالمية الإسلام، وقد برهنت الأزمة المالية العالمية الأخيرة قوى عالمية الإسلام، وبدأ العالم يبحث عن منقذات للأزمة العالمية من مبادئ الصيرفة الإسلامية التي استطاعت أن تصمد أمام الأزمة المالية رغم محدودية أدواتها وضئالة موجوداتها؛ لأنها ترتكز في الأساس على المبادئ والأخلاق وتركز على العدالة بين المجتمعات والأفراد لأن الإسلام يرفض ويحارب كل من يستغل الناس.

لهذا فإن أدلجة عالمية الإسلام تلغي مضامينها وتلغي معناها الواسع وتحولها إلى معنى ضيق حتى ولو كانت تلك المضامين صادرة عن جماعات إسلامية تجعلها ترفض الدولة القومية وتسعى لهدمها على اعتبار أنها تتعارض مع عالمية الإسلام لأنها نتاج اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم العالمين العربي والإسلامي ما جعلها تعادي حكومات الدول القومية وجعلت من الدول العربية والإسلامية مسرحًا وساحة مواجهة ضد دول الاستكبار العالمي، وهو مصطلح تستعمله بعض الجماعات الإسلامية خالفت بذلك منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي أمر الصحابة بالهجرة إلى الحبشة مرتين حينما كان المسلمون مستضعفون، وعندما هاجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة لم يتوقف أذى كفار قريش بل زاد وكل الغزوات التي دارت رحاها كانت حول المدينة ولم تكن حول مكة، وحينما أراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أداء العمرة منعته قريش وأبرم معها صلحًا غير منصف، وكان مجحفًا وغير متكافئ رغم إن المسلمين كانوا يمتلكون القوة والمنعة فتضجر كثير من الصحابة من هذا الصلح غير المتكافئ لكن أشارت أم سلمه زوجة النبي - صلى الله عليه وسلم - على الرسول - صلى الله عليه وسلم - المبادرة بمبادرة إلى الحلق وذبح هدي ليتبعه بقية الصحابة المتضجرين من هذا الصلح وأدرك الصحابة فيما بعد حكمة هذا الصلح حينما منعت قريش كل من يسلم الدخول إلى المدينة فتجمعت

عصابة مؤمنة وقفت حائلاً أمام تجارة قريش إلى الشام وتمنت قريش أن تسقط هذا الشرط.

وبعدما قويت الدولة الإسلامية كان هم الرسول - صلى الله عليه وسلم - نشر الدعوة الإسلامية بالحسنى وبدون أكراه وليس مثلما يروج الغرب بأن الإسلام انتشر بقوة السيف بل إن هذا الفكر يتبناه حتى بعض المسلمين ويصرون عليه مستدلين بقول الله سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:١٢٣]، وهذه الآية نزلت في سورة التوبة التي نزلت عام تسع من الهجرة بعد فتح مكة بعام لأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه بالنبذ إلى المشركين بعهدهم، وأباح للمشركين الضرب في الأرض، والذهاب إلى حيث يريدون وأمهلهم أربعة أشهر ومن يبقى يقتلون حيث يوجدون وابتداء هذا الأجل من يوم الحج الأكبر وانقضاؤه إلى عشر من ربيع الأخر من سنة عشر {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [التوبة:٢] أي اعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز، ولكن لمصلحة من يتوب، لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أراد بعد فتح مكة تطهيرها من الشرك، وقال صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يجتمع مسلم وكافر بالبيت الحرام بعد عامهم هذا ومن كان بينه وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - أجل فأجله إلى مدته، ومن يكن له أجل فأجله أربعة أشهر.

والجهاد ليس انتقامًا من الكفار بينما هو دفاع عن النفس {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٩١].
{لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨].

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠].

أزمة هوية في عصر العولمة:

العولمة هي صراع بين القوى على المصالح. القوي يكتسح الضعيف ولكنها ليست هي قاعدة أبدية، بل هناك تدافع فرضه الله سبحانه وتعالى على البشر من أجل رفع الظلم وإقامة العدل {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١]، فالقوي لا يمكن أن يستمر في اندفاعه واكتساحه للقوى الضعيفة وفي المقابل لابد من القوى الضعيفة أن تتحد وتقوى في وجه قوى الطغيان لتتمكن من صدها وتحجيمها.

وقد تمكنت قوى التيارات المناهضة للعولمة من الاجتماع في بورتو اليجري وتحولت بين تيارات متضاربة إلى تيار جمعي اتحدت جميعها في رفض قيم العولمة النقدية والمالية وما تقوم عليه من غبن واستغلال وتفاوت في توزيع الثروة وإعادة الاعتبار لقيم التعاضد والتعاون والعدالة الاجتماعية، وكانت سببًا في انهيار مؤتمر كانكون في المكسيك في وقف قوى العولمة من الاستمرار في ظلمها والاستجابة لمطالبها ولكن غاب العرب والمسلمون عن ذلك التيار الجمعي المتحد رغم أنهم يمثلون ربع سكان المعمورة.

ونردد بصفة دائمة الخوف من فقدان الهوية الذاتية واختراق خصوصياتنا التي صاحبها ترجيف وتخذيل للأمة تفرقت نتيجته كلمة المسلمين.

السبب في ذلك لأننا تقاعسنا عن القيام بدورنا وتركنا المنافسة لغيرنا. وكان من المفترض أن تكون أمة الإسلام هي الأقدر على استيعاب العولمة لأن ديننا دين عالمي يمتلك قوة كامنة في معالجة جميع القضايا والمستجدات العالمية {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:٨٣]. وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم – قال: "ستكون فترة النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الساعي، فمن وجد ملجأ أو معاذًا فليستعذ به".

فوسائل الإرجاف بالمؤمنين وتخويفهم وتخذيلهم وتفريق كلمتهم والتحليلات المضللة كلها وسائل أدت إلى القوقعة والعزلة أو المواجهة بالعنف المسلح كوسيلة سريعة استجابة للاضطراب والقلق الذي تعيشه هذه الفئة من أجل أن تحافظ على الهوية والخصوصية التي ورثتها حسب ادعائها. رغم جهود الصحوة وفضلها الكبير في عودة المجتمع وخصوصًا منهم الشباب إلى دينهم، إلا أنها لم تتمكن من التأقلم مع العولمة واستغلالها بدلاً من أن تهاجمها وتصبح في حالة دفاع لا ينقطع؛ لأنه لم يصاحبها رؤية نقدية تصحيحية للخطاب القديم الذي يراعى فيه تغير الزمن والظروف تماشيًا مع أحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - جعلها في مرمى من الهزات الفكرية المتلاحقة دون أن تتمكن من تجاوزها أو استيعابها نتيجة التركيز على الخطاب الشعاراتي والوعظي وإن كان هما ضروريان في بعض الأوقات ولكن ليس لجميعها؛ لأنه لم يتبدل النسق العام للفكر خصوصًا مع خطاب التعايش والتواصل أي ما نسميه بالخطاب الاجتماعي بدلاً من التركيز على الخطاب السياسي على حساب الخطاب الاجتماعي من أجل الوحدة والتكتل.

والأزمة التي يعانيها الخطاب الصحوي في الفترة الماضية هو الرفض الشامل للآخر الغربي من بعض رموز تيارات الصحوة رغم تفاوت مواقف الآخر تجاه المسلمين بسبب القراءة الضيقة للولاء والبراء.

والقضية التي أشغلت تيار الصحوة التصعيد الدعوي ضد سير المجتمع نحو العلمانية أو ضد تيار العولمة بدلاً من التأقلم معها وجعلها تصب في صالح الأمة.

بالإضافة إلى الانشغال بالذهنية التآمرية التي كانت سببًا في القوقعة والعزلة وعدم القدرة على التعاطي الدبلوماسي ليتجاوز تلك الذهنية التآمرية وبها أضعنا مكتسبات لا حصر لها كانت يمكن أن تعول بالنفع على الأمة وهي سبب جمودنا.

وقضية كبرى أخرى أغفلها التيار الصحوي في مشروعه ألا وهي الاقتصاد الذي هو محور العولمة ومنطلقها البراغماتي والاستراتيجي.

لم يتمكن من جعله مشروعًا أساسيًا في خطابه بدلاً من مهاجمته ليشترك مع التيارات الأخرى العالمية ويتحد معها ويساهم بمفاهيم اقتصادية في الإسلام لتكون مشاركته مشاركة فاعله وبارزه في مشترك إنساني يساهم في تعديل مسار النظام الاقتصادي العالمي نحو التجارة الإنسانية العادلة.

ومن أسباب عدم تمكن بعض الصحويين من التأقلم مع العولمة يرجع إلى فقدان المناعة الثقافية التي حصرت فئة منهم ضمن خيارين محددين إما القوقعة والسقوط بكل سهولة في حالة الاستعداد للهيمنة والاختراق، وإما لجوء فئة منهم إلى الصف المسلح لعدم تمكنه من ضبط وتوجيه مشاعره اليائسة تجاه ما يحدث للأمة ضمن إطار المنهج الإسلامي فضلوا الطريق وهلكوا كما في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :"هلك المتنطعون" رددها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات. ففقدان المناعة الثقافية الفكرية الدينية كان بسبب عدم تمكنهم من فهم الغاية من الرسالة المحمدية {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧] {وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [العنكبوت:١٨] {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} [البقرة:٢٧٢] {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [ق:٤٥] {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦ {]إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان:٣] {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم} [يونس:٢٣]

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران:١٢٨] نزلت في المنافقين في ترك أمرهم لله سبحانه وتعالى.

فأصبحت الصحوة تعيش أزمة هوية في عصر العولمة فبدلاً من أن تجعل الدين محدد هوية العولمة أصبح الدين مهددًا من قبل العولمة. وأكبر أزمة ابتليت بها الأمة الإسلامية في العقود الأخيرة تكفير المسلم للمسلم جعله يستبيح دمه فيحمل عليه السلاح مخالفين بذلك النهج الإسلامي كما في أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المغلظة في حرمة المسلم: "كل المسلم على المسلم حرام" رواه مسلم. فالفكر الثقافي الديني ديناميكي حي لا يموت له القدرة على الصمود والانتشار العالمي لارتباطه بالوحي القرآني المقدس والسنة الشريفة الذين ضمنا له البقاء أزليًا بمخزونه الذي لا ينفذ ولمخاطبته العقل والروح معًا مكمن العواطف بعكس العطاء المادي. كما أن أدواته لا تتعارض مع الأدوات الحداثية الحضارية بل له القدرة على تأصيلها واستيعابها وجعلها تصب في نفع البشرية أو تبيئتها إسلاميًا كما يقول الجابري. فالفكر الديني له قوة تولد طاقات جبارة مارده أمام العدو لايمكن التصدى لمقاومتها وهو الذي يولد المناعة الثقافية حتى لا يصاب المسلم بفقدان الهوية أو الانسلاخ أو الاستلاب مثل بقية الشعوب والأمم التي تخاف على فقدان هويتها. وأصبحت الدول الغربية نفسها تخاف من فقدان هويتها مثل فرنسا وألمانيا من أن تهيمن الهوية الأمريكية مكان هويتها الأصلية. كما أن رياح العولمة أثرت على الهوية الصينية ففي عام ١٩٨٥م كانت العلاقات بدون زواج لا تتعدى ١٥ في المائة ارتفعت تلك النسبة الآن إلى ٧٠ في المائة بسبب ضعف المناعة الثقافية الدينية. فالمخرج من أزمتنا يجب أن ينطلق من الإيمان بالذات لتعزيز المناعة الفكرية الثقافية الدينية، وأننا مؤهلون كغيرنا ولكن ما مر بنا من جمود فكري وعلمي وحضاري كان نتيجة قوقعة انعزالية فرضناها على أنفسنا. وفرطنا في أمر ربنا {فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين:٢٦]، وإدراك الحكمة من خلقنا {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف:٧] أي

دار اختبار لا دار قرار فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنه قال: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء"، هذه هي نظرة الإسلام إلى الحياة الدنيا نظرة موازنة.

ديناميكية العولمة لا تستند إلى مضمون ثقافي بل إلى أيديولوجي عقائدي:

(العولمة تسير نحو التعدد والتنوع الحضاري وتضاد مع الأمركه)

وصول نمط التحديث الغربي إلى حدود بدت قصوى وبدت جليه في أزمات اقتصادية واجتماعية حادة لدولة الرفاهية في الشمال المتقدم كان أهمها تراجع معدلات النمو وتزايد نسبة البطالة، وتصاعد تيارات التطرف السياسي والعنصري، فضلاً عن مشكلة التهديد الايكولوجي للوجود الإنساني أشارات تحذير واضحة بدأت معها النخب السياسية في الغرب ولو على نحو جزئي في التفكير في استراتيجيات جديدة لإدارة مجتمعاتها.

فالولايات المتحدة كالحضارات السابقة التي كانت تعتبر نفسها مركز العالم أبان عظمتها وتوسعها وهي نزعة طبيعية لا تخلو منها أي ثقافة أو حضارة، ولكن إذا ما زادت عن حدها فإنها تصبح مزعجة وتتحول إلى انغلاق وتعصب كالنزعة العرقية المركزية الأوربية التي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر أيام الاستعمار.

فالصدارة الأمريكية تعزز الاتجاه الأمريكي في العولمة بمفهوم الهيمنة والسيطرة على العالم، وليس بمفهوم المشترك الإنساني، الذي يحتفظ بالتنوع ويقوم عليه، ويراه أساسي النمو الحضاري، والتقدم وإثارة الاقتداء والفاعلية، وبجميع الطاقات للإقلاع الحضاري بل حاولت الولايات المتحدة تأهيل الشعوب وترويضها للقبول بالعولمة، التي تعنى التسلط والاستعمار بصيغ قديمة جديدة.

تعريف العولمة:

العولمة فلسفة تركيبيه اختزالية واندماجية تحاول أن تجعل من العالم المتنوع والمتعدد والمتناقض في هوياته وثقافاته وقومياته ولغاته وديانات وجغرافياته إطارًا في قالب واحد.

وهي توظيف أيديولوجي وعقائدي صامت يخفي معه أيديولوجية ثورة المعلومات والاتصالات وتقنيات الإعلام المتطورة التي ربطت الكون بشبكات جعلت منه أشبه بقرية صغيرة.

وظهر مؤخرًا في أمريكا وفي أواسط الثمانينات وكان يعنى أولاً تحرير التبادلات التجارية من كل القيود الجمركية أي عولمة البضائع أو السلع المتنافسة فيما بينها على صعيد الكرة الأرضية كلها وليس فقط داخل سوق كل دولة على حده.

فالعولمة تجاوزت الأسلوب التقليدي فصاغت جملة من القوانين والضوابط الملزمة التي بها يصبح الأخذ بتلك القيم إجباريًّا. وإشاعة هذه القيم على أنها مرحلة أولى قبل فرضها قانونيًا على العالم.

العولمة كونية وليست أمريكية:

العولمة بمعناها المقتضب هو اختصار للزمن والمسافات بفضل تكنولوجيا المعلوماتية ووسائل الاتصال تصديقًا لما جاء في الحديث عن علامات آخر الساعة قرب البعيد.

وبالوسائل التقليدية في العصور ما قبل تطور التكنولوجيا كان نقل الخبر يستغرق ساعة للكيلو متر الواحد فالمسافة بين مدينتين التي تساوي ألف كيلو متر تحتاج إلى أربعين يومًا. ثم تقلصت الفترة الزمنية إلى ثلث ساعة للكيلو متر الواحد في القرن الثامن عشر ولكن بدءًا من عام ١٨٦٥ أصبحت الرسالة تصل من لندن إلى بومباي خلال أربع وعشرين ساعة فقط. أما الآن فإن الخبر يصل من أقصى الأرض إلى أقصاها في خلال ثانية واحدة عبر الانترنت أو الهاتف النقال أو الفضائيات.

العولمة في قطيعة مع حقبه الحداثة:

العولمة هي حركة قولبية شمولية لها أدوات تتحقق بها (تقنيات الاتصال التي وحدت البشرية) في الوقت الذي ليس لها مضمون ثقافي أو قيمي تعرضه في مقابل ديناميكية الحداثة التي بلورت قاعدة نظرية رصينة ونسيجًا إيديولوجيًا كثيفًا (ترابط الثورات العلمية والتقنية وفلسفات التنوير) فحركية العولمة هي في قطعية مع حقبة الحداثة، وبداية أفق ثقافي ومجتمعي جديد يتلاءم والثورة التقنية الثانية التي غيرت جذريًا أدوات المعرفة ورهانات الاقتصاد والسلطة والمجتمع.

كما أنها في حالة انفصام متزايد بين مرتكزات ثلاث أساسية هي الدول القومية وتوحد المنظومة الرأسمالية والمفهوم الجديد للمواطنة الذي تسعى تكريسه شبكات المجتمع المدني العالمية.

فتقليص دور الدولة القومية في عصر العولمة يتعارض تمامًا مع زمن الحداثة الموحد والغائي والممركز الذي ينتظم حول الدولة القومية بصفتها الوحدة الروحية لعصور الحداثة حسب رأي هيغل.

وبذلك فإن ديناميكية العولمة لا تستند إلى مضمون ثقافي حقيقي، ولا يمكن أن نسميها بالنموذج الحضاري الغربي الذي يراد فرضه وتعميمه على البشرية برمتها وقد تسببت في مآسي:

١ – قضاء العولمة على دولة الرعاية مدعاة للفقر والنزاعات العرقية:

إذا عززت الرأسمالية القاتلة اللامساواة التي أحدثتها ودمرت التماسك الاجتماعي وطحنت الغالبية العظمى من السكان. فالمشهد الراهن للعولمة وما ينبىء به من تطورات مستقبليه، يشي بأن العالم مقبل على الفقر والجوع والديكتاتورية والصراعات العرقية.

ففي كتاب (عولمة الفقر) لميشيل تشوسودوفيسكي عام ١٩٩٨م الذي جعل اتساع دائرة الفقر الجغرافية من أفريقيا وجنوب آسيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية ليصيب النمور الآسيوية وأوربا الشرقية والبلقان وروسيا فحسب وإنما

أيضًا الغرب نفسه، ويقول إن تحطيم دولة الرعاية لم يؤد بالفقر في مناطق الأكواخ في المدن الأمريكية والأوربية بل يأخذ شكلاً شبيهًا في العديد من نواحيه لما هو سائد في أفريقيا جنوب الصحراء. ومع تزايد الفقر وارتفاع مستويات البطالة تتزايد النزاعات المدنية والتشققات الاجتماعية والغليان.

٢ – العولمة ساهمت في خلق فجوة معرفية بين الدول النامية ودول العالم المتقدم:

عولمة العولمة ساهمت في خلق فجوه معرفيه بين دول العلم الثالث والدول المتقدمة من شأنها أن تخلق فقراء جددًا وأغنياء جددًا لا يتمثل التمييز بينهم بالاحتكام إلى الرأسمالي المادي، ولكن بمدى ومستوى معرفتهم بالعلوم والتقنيات والتكنولوجيا. وتتضمن مزيدًا من الاستغلال الاقتصادي يتجلى فيما تفعله الاستثمارات الأجنبية الخاصة عندما تترك العالم في البلاد الرأسمالية نهبًا للبطالة، وتذهب إلى استغلال العمل الرخيص في البلاد الأقل نموًا. كما يتجلى في شركات الأدوية العملاقة التي تضغط من أجل إن تفتح لها كل بلاد العالم أبوابها لتحقيق مزيدًا من الربح على حساب مستهلكي هذه الأدوية ومنتجيها داخل البلاد الأقل نموًا.

وإصرار القوى المهيمنة في الشمال على أن تسخر لمصالحها الإمكانات البشرية التي في الجنوب نزفًا للأدمغة؛ وذلك لكون بلدان الجنوب غير قادرة على تطوير هذه الأدمغة والانتفاع بها.

كما أن الثورة الصناعية الثالثة (مجتمع المعلومات) تمثل عنصرًا مهمًا لإعادة تعريف بعض المفاهيم الرئيسة قبل السيادة والأمن والحدود الدولية، وتتحكم في هذه المفاهيم الدول الصناعية المتقدمة والشركات المتعددة الجنسيات، ومن المؤكد أنها أسهمت وتسهم في تعميق الهوه بين الشمال والجنوب وبخاصة في ظل ضعف قدرات وإمكانات هذه الدول على استيعاب هذه الثورة الصناعية الثالثة أو الاستفادة منها أو التكيف مع مخرجاتها.

٣ – تضاؤل دور الدولة في عصر العولمة صاحبة إعادة خريطة العالم ومناطق النفوذ:لعرفيه بين دول العلم الثالث والدول المتقدمة من شأنها أن تخلق فقراء جدد وأغنياء جدداً لايتمثل التمييز ب

الدولة الأمريكية ازدادت قوة وعملقة في عصر العولمة أو أيديولوجية تضاؤل دور الدولة تعيد رسم خريطة العالم واقتسام مناطق النفوذ حسب القوة النسبية والإطاحة بنظم الحكم أو تعيين الحكام وفرض تفسيرات الدين وتسجيلات التاريخ الملائمة بين المركزية الغربية والخصوصية الثقافية .

وكما ساهمت الثورة الصناعية الثالثة (مجتمع المعلومات) في توسيع الفجوة العلمية والثقافية بين الدول المتقدمة والعالم الأقل نموًا؛ فإنه أيضًا ساهم في إعادة تشكيل خريطة العلاقات والتوازنات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليس على صعيد العلاقات بين الدول فحسب ولكن على صعيد الدولة ذاتها أيضًا.

٤ – العولمة تعزز نزعة الدكتاتوريات الشمولية:

بسبب تزاوج العولمة مع التكنولوجيا يعيد تشكيل المجتمعات الديمقراطية ويخلق التقلصات والتوترات التي تقود إلى كل الاحتمالات وفي مقدمتها التحولات المضادة للديمقراطية عبر تطور نزعة الشمولية العرقية والدكتاتورية الفئوية أو حتى الدكتاتورية الشعبية في ظل الأوضاع العالمية الراهنة كرد معاكس تتعزز الاتجاهات المضادة للديمقراطية.

كل ذلك لإدخال الأمم والشعوب في مرحلة الوهن الحضاري وذلك بإقامة الاستبداد السياسي ومساندتها، لأنها تدمر الثقافة والتربية والتعليم والاقتصاد وتغرس صفات الذل واليأس في النفوس، وتجعل المجتمعات هشة، وسريعة العطب والانكسار والاستسلام.

التكريس للعولمة يقابله تيار مضاد في التعدد والتنوع والتمسك بخصوصياتها:

يؤكد لنا التاريخ أن بعض خصائص الحضارة المهيمنة تتولاها الدولة المهيمنة الذي يسود في حقبه معينة.

فالصدارة الأميركية بشموليتها تعزز الاتجاه الأمريكي في العولمة.

ومزاعم أمريكا في العولمة تجعل الشعوب المختلفة تتمسك بصورة متزايدة بهويتها الثقافية وعلى نحو متعصب في معظم الأحيان.

فالعولمة لا تسير بالعالم نحو حضارة كونية واحدة بأي معنى من المعاني ولا تتجه إلى الأمركة بل إن العالم يسير نحو التعدد الحضاري والتنوع الثقافي، وإن ميزان القوى بين الحضارات يتغير فالغرب يتدهور في تأثيره النسبي، بينما الحضارات غير الغربية عمومًا تعيد تأكيد ذاتها، وبشكل خاص الحضارات الآسيوية.

كما أن مزاعم أمريكا في العولمة تجعل الشعوب المختلفة تتمسك بصورة متزايدة بهويتها الثقافية وعلى نحو متعصب في معظم الأحيان وعليه فإن الاتجاه نحو العولمة رادفة اتجاه متصاعد نحو النزعه الإقليمية وبشكل أكبر نحو المحلية.

فالعولمة تسير بتضاد مع الأمركة، وإن الأفرقة صارت المرادف لها وهي بما تثيره من تداعيات صارت تصيب بعدواها الدول الغربية نفسها ولم يعد النموذج الغربي جذابًا لا بشخصه الرأسمالي، ولا بشخصه الاشتراكي، بمعنى إن الاختراق الداخل لهذه الحضارة قد حدث، فالنظام الاشتراكي قد انهار والنظام الرأسمالي أصبح في أزمة.

عولمة (دين الحداثة) من خلال (كونيه الحداثة) في عصر العولمة الزاحفة:

الشيء الوحيد الذي قبلت الحضارات الأخرى بنقله إليها دون تردد. وبهذه المعنى أصبحت الحضارة الغربية كونية عن طريق تعميم الآلات التكنولوجية على جميع شعوب الأرض وكذلك تعميم العلوم الأخرى.

لكن الحضارات الأخرى لا تقبل بعقائد الغرب بسهولة بل وتعتبرها غزوًا فكريًا يشكل خطرًا على عقائدها وتراثها الخاص.

فالنموذج السياسي الغربي القائم على التعددية والديمقراطية أصبح يفرض نفسه أكثر وأكثر على شعوب العالم.

فكونية الحضارة الغربية لم تعد محصورة بالعلم الفيزيائي والتكنولوجيا وإنما أصبحت تفرض نفسها على كافة الأصعدة والمستويات. وهو ما نسميه (بدين الحداثة) يتمثل في العلمانية وحقوق الإنسان والديمقراطية.

ويمكن أن يصبح الإنسان كوني من خلال أصالته وخصوصيته العربية والإسلامية ولكن لماذا نجحت الحضارة الأوربية وأصبحت سيدة العالم بلا منازع وبرزت فيها الثورات الثلاث السياسية في فرنسا والصناعية في انجلترا والفلسفية في ألمانيا وأصبحت خلاصة كل الحضارات السابقة؟ ولقد تأثرت خصوصًا بالحضارة العربية الإسلامية وأثر علمائنا وفلاسفتنا على النهضة الأوربية الأولى.

فالعلوم والتقنيات وصلت إلى مرحلة النضج في أوربا وظلت في المرحلة الجنينية خارجها؛ لأنها اتبعت المنهجية التجريبية والتفكير العقلاني.

العولمة الثقافية هي الحداثة الغربية اللادينية:

ولكن العولمة الثقافية التي تريد العولمة صب العالم في قالب الثقافة الحداثية اللادينية، تلك التي بدأت بعصر التنوير الأوربي الوضعي العلماني. وهي دهرية لا علاقة لها بأي إيمان أو دين من الأديان، ودنيوية طبيعية لا دينية فهم إباحيون يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لا يصدقون بشيء مما في كتب أهل الكتاب، وقد ذمهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم:٧].

وكثيرًا ما ألف فولتير من الكتب في تخطئت الأنبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنسيين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسوية وفتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة (في زعمهم) شريعة الطبيعة.

هذه هي الحداثة الغربية اللادينية والتي أخذت تتسرب تحت لافتات العلم والنظريات العلمية حتى أنهم نسبوا المعجزات التي أتى بها الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية منكرين وجود الإله الخالق هدفهم هدم عموم الأديان.

فلابد من التمييز بين نهضة الغرب في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها وبين وضعية ولا دينية الحداثة التي انخدع بها كثير من مثقفينا المغربين.

فثقافة الحداثة هي ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين ثقافة الدنيا والدنيوية

{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [الجاثية:٢٤].

فهذه الثقافة ألهت العقل وعبدته وانتقلت به من النسبية إلى الإطلاق، وقالت لا سلطان على العقل إلا للعقل ولكن في الثقافة الإسلامية العقل مع الشرع نور على نور.

التفاوت في مفهوم الحرية عند الإنسان الغربي والإسلام:

ولقد اتخذ الإنسان الغربي الحرية مثلاً أعلى؛ لأنه كان محطمًا ومقيدًا بالانحلال في كل مساحات الحياة سواء العلمية أو الدينية بحكم الكنيسة وتعنتها. فأراد أن يجعل من الإنسان كائنًا مختارًا إذا أراد أن يفعل يفعل، يفكر بعقله لا بعقل غيره، ويتصور ويتأمل بذاته، ولا يستمد هذا التصور كصنع ناجز من الآخرين.

وأصبحت الحرية هدفًا وصيره مثلاً أعلى لا إطارًا فإذا ما جرد من محتواه قاد إلى الدمار، وهذا الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم والتي صنعت البشرية كل وسائل الدمار.

ولو جعل الإنسان الغربي حدًا تنتهي عنده الحرية لتمكن من إنقاذ نفسه وإنقاذ العالم منه، ولا يوجد في الكون شيء مطلق ومثلاً أعلى إلا خالق هذا الكون وما عداه فهو مقيد وذو حدود ينتهي عندها وإذا تجاوزها اتجه نحو الخطر.

لذلك فالحرية في الإسلام تصاغ ضمن صعد مختلفة كالصعيد الاجتماعي والشخصي والسياسي والفكري، فالإنسان يكون حرًا في تحديد طريق الحرية ورسم معالمها واتجاهاتها. فالحرية تعنى ثورة اجتماعية على الظلم والاستبداد وكل أشكال الاستغلال.

الحداثة صنعتها أوربا ثم انتقلت إلى أمريكا بعدئذ لم تعد أوربية ولا أمريكية بل كونية:

ويعتبر جيرار لوكلير مؤلف كتاب العولمة الثقافية الذي نشر في باريس عام ٢٠٠٣ إن الحداثة هي أوربية من حيث أصلها ونشأتها. ثم توسعت بعدئذ وأصبحت بحجم العالم عن طريق تغريب الثقافات الأخرى. أو التأثير عليها طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين. ولكن إذا كانت الحداثة أوربية، فإن العولمة التي هي امتداد لها أمريكية؛ وذلك لأن المركز السياسي والاقتصادي والثقافي والبنائي للعالم انتقل بعد الحرب العالمية الثانية من أوربا إلى أميركا. ولكن الحداثة بعدئذ لم تعد أوربية ولا أميركية، وإنما أصبحت كونية.

فالجميع يتبناها أو يتبنونها عاجلاً أم آجلاً بشكل أو بآخر. ويعلل جيرار لوكلير السبب في أنها تختلف عن الحضارات السابقة التي لم يكن تعترف من قبل بالتسامح والتعدد ولم تستطع أي حضارة في الماضي مهما بلغت عظمتها أن تقبل الآخر كآخر. أو تعترف بوجود عدة أديان أو مذاهب أو أحزاب سياسية داخل المجتمع الواحد. وحدها الحداثة الأوربية استطاعت أن تحقق ذلك ويبدو أنه يتجاهل الحضارة الإسلامية واعترافها وتقبلها بالآخر وإن كان يتراجع قليلاً إلى العصور الوسطى ويعترف بأن الحضارة الأوربية قبل تشكيل الحداثة وانتصارها كانت ترفض هذه التعددية مثلها في ذلك مثل الحضارة الإسلامية حاليًا على عكس الماضي حيثما كانت الحضارة الإسلامية أكثر تسامحًا منها طيلة العصور الوسطى ويمكن أن نجيب عليه إن الحضارة الإسلامية في الوقت الحاضر ليست مسئولة عن غياب التعددية وإنما النظم الاستبدادية الحاكمة التي صنعتها الحداثة الأوربية هي التي ترفض التعددية، بينما ثقافة الحضارة

الإسلامية راسخة وأصيله في مبادئها فكما كانت في الماضي فهي في الحاضر كذلك فالفرقعات لا تلغي الإشراقات.

العولمة هي التي أوجدت صراع الثقافات (الحضارات):

١ - فالصراع يدور حول أهمية الخصوصية الثقافية في مواجهة عملية التغريب هذا على المستويات المحلية.

٢ – على المستويات الدولية يدور حول التأثير السلبي للعولمة على الثقافات المحلية لشعوب العالم.

ولا نقصد هنا أن الخصوصيات والثقافات المحلية غير قابله للتطور ولا للتكيف مع المتغيرات العالمية كما يدعى دعاة العولمة والقيم الثقافية بل هي في الواقع عوالم وليس عالمًا واحدًا ولم تكن وحدة الواحد بل وحدة المتعدد.

ويرفض الغرب تماثل تطابق ثقافته مع ثقافة الآخر ويعتبرون ثقافتهم هي المركز وثقافة كونية شاملة تمارس الاستعلاء وإقصاء الثقافات الأخرى ولابد أن تكون في دائرة الخضوع والامتثال للثقافة المركزية الكونية الشاملة.

الفرق بين دعوة العولمة وعالمية الإسلام:

الإسلام وإن كانت دعوته عالمية الهدف والغاية والوسيلة إلا أنها تمتاز عن العولمة في الشكل والمضمون.

فحضارة الإسلام قامت على القاسم المشترك بين حضارات العالم فقبلت الآخر وتفاعلت معه أخذًا وعطاءً على أساس إن الاختلاف بين البشر حقيقة من حقائق الكون وهي من عوامل التعارف والتعاون والتكامل.

وتوحيد الله سبحانه وتعالى هو الإطار الأساسي للحضارة الإسلامية وهذا الإطار ينسحب على بقية مكونات وأسس الحضارة الأخرى للحفاظ عليها كالعدل والأخلاق وغيرها من أسس الحضارة.

وأهم مبادئ عالمية الإسلام الاستخلاف في الأرض أو تحمل الأمانة وخيرة الأمة التي وصفها الله بها لأنهم يعرفون المنكر وينهون عنه ويعرفون المعروف

ويأمرون به. وكلها وظائف لها أخلاقيات ذات مصداقية يحترم فيه الإنسان ذاته والمجتمع والله وبذلك فالإسلام يحمل الأقوياء مسؤولية الضعفاء محليًا وعالميًا.

المبحث الثالث: المسلمون بين التقسيم وصراع الأدوار

المسلمون بين التقسيم وصراع الأدوار:

تكفل الله سبحانه وتعالى ببقاء وحفظ هذا الدين بل وحماية استباحة بيضة المسلمين كذلك، لكن يبقى بأس المسلمين فيما بينهم إذا ابتعدوا عن الأخذ بأوامر الله في النهي عن الاختلاف والتفرق {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال:٤٦]، يمكن أن يصبحوا لقمة سائغة أمام المتربصين من غير المسلمين ويصبحوا أمام اعتداءات متلاحقة، ولا يمكن أن ينصر الله المسلمين وهم في حالة تفكك وانقسام؛ لأن التوحد شرط أساسي لنصرة الله المسلمين والقدرة على الدفاع عن أنفسهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد:٧]، ورغم الاعتداء المتوالية على المسلمين نتيجة تفرقهم وانقسامهم فإنه لن يصيب عقيدتهم بل هو أذى في النفس والمال {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} [آل عمران:١١١]، فيبقى العدو الأكبر هو من داخل الأمة الإسلامية ويصبح بأسهم فيما بينهم بسبب انقسامهم وصراعهم على الاستئثار بأدوار هي على حساب وحدتهم وقوتهم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:١٠]، فالانقسام المذهبي والطائفي أصبحت أدوات يجيدها السياسيون في تحقيق أهدافهم الخاصة على حساب جسد الأمة الإسلامية رغم

إن هذا التنوع هو إثراء وقوة لكنه أصبح العكس وقد حذر الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين من الانقسام الطائفي فقال: (لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى)، وقال صلى الله عليه وسلم: (سلمان منا أهل البيت)، وفي نفس الوقت قال لسلمان الفارسي: لا تبغضني، فقال: يا رسول كيف أبغضك؟ فألمح إليه صلى الله عليه وسلم بعدم النيل من العرب والتقليل من قدرهم. وكان يقول عمر بن الخطاب: (لا تذلوا العرب فإنهم مادة الإسلام).

ويعاني المسلمون من صراع بين الفكر القومي والتيارات الدينية حتى أصبح المسلمون أكثر الأمم استهدافًا للتطويع والانصياع وزرع الفوضى الدامية بين المسلمين وتوحي لهم بأن هناك هجمة فارسية مدعومة بنزعة ثورية قومية على العرب تتزامن مع إحياء الشقاق المذهبي على مستوى دول المنطقة أشعلت فتيل النزعة القومية والشعوبية والمذهبية والطائفية، وكان المسلمون نسوا قول الله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} ونسوا أن المؤمنين في الماضي صنعوا حضارة الإسلام وهم جميعًا مكلفون بتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم بدلاً من الانشغال بصراع داخلي لا يستفيد منه إلا أعداء الإسلام.

فالصراع على الأدوار أوجد خطابين على الساحة خطاب عروبي وخطاب غير عروبي، وليس فقط على الساحة بل أحيانًا في الدولة الواحدة خصوصًا إذا كامن مغلف بغلاف ديني ومذهبي؛ أي أن الوعي أصبح منقسم تحت تأثير انبهار الآلة الدعائية التي تحاول أن تهيمن على الوعي الشارعي وخطفه كرهينة في زمن العولمة تستخدمه كورقة ضغط على الجانب الأخر والخاسر الوحيد هي وحدة المسلمين.

التكريس للهوية القومية وفصلها عن القطبية الدينية:

الصهيونية العالمية لم تلعب على وتر القوميات فقط بل لعبت أيضًا على وتر الطائفية والمذهبية والعرقية والفئوية وكل ما يساعدها على تفتيت بلاد العرب والمسلمين.

فلعبت على وتر القومية العربية والفارسية مثلما لعبت في السابق على وتر القومية العربية والتركية حتى جعلت من القوميين العرب ويساريهم يتبنون مضادًا لتلك القوميتين مستفيدة مما كتبه أدعياء القوميات في التاريخ سابقًا، وولدوا كراهية متبادلة بين طرفي القوميتين حتى أصبح كل منهم يشكك في نوايا الطرف الآخر وهذا ما نجده دائمًا في تصريحات الغرب لفصل القومية الفارسية والتركية عن القومية العربية، فبلير بعد أن أفرجت إيران عن البحارة البريطانيين خرج إلى الإعلام وقال: إن الشعب البريطاني يحترم إيران كحضارة فارسية عريقة ولم يتطرق إليها كحضارة إسلامية عريقة أيضًا.

واستثمرت صراع المتطرفين في كلا الجانبين لتأجيج ذلك الصراع وتسييس التاريخ المزور مثل رسالة الخليفة الثاني ليزدجرد يدعوه بها إلى التخلي عن الزرادشتية واعتناق الإسلام ليتجنب الحرب في هذا العام وجهنم في الحياة الأخرى ورد عليه كذلك يزدجرد ويؤكد العلماء أن الرسالتين كتبتا في القرن العاشر الميلادي أي بعد ثلاثة قرون.

فما هو مطروح في الساحة اليوم هو تكريس للهوية القومية وفصلها عن القطبية الدينية رغم أن الفرس لعبوا دورًا كبيرًا ليس فقط في نشر الدين الإسلامي بل حتى في صياغة اللغة العربية نفسها فسيبويه والمعجمي روزبه مثالين واضحين على ذلك.

فالصهيونية العالمية تريد للقومية الفارسية أن تكون معادية للقومية العربية والعكس كذلك ليتسنى لها تحقيق ما تريده من خلال تأجيج صراع

إقليمي حتى تتحقق لها بيئة متناحرة وهشة تستطيع اختراقها وتحقيق ما تريده من هيمنة إقليمية وعالمية وضرب الإسلام في المقام الأول.

وبالنظر إلى الأدب الفارسي هناك عبارات تمكن دعاة القومية من تضمينها جعلت من صورة الإنسان العربي في الأدب الفارسي (نازي) أي غازي أو (زاهاك) أي تعني الحاكم القاسي، وإن كان معظم الشعراء الكلاسيكيين منهم لديهم نظرة إيجابية إلى العرب فالمشاعر العدائية غرست بين القوميات واستمر الترويج لتلك المشاعر المعادية يتعاظم من قبل القوميين مثلما أمر أتاتورك بتنقية اللغة التركية من اللغة العربية، وكذلك أنشأ رضا شاه أكاديمية لتطهير المفردات الفارسية من الكلمات العربية. فأصبح هناك خوف من الهيمنة العربية التي غرسها الاستعمار وغذتها الحرب العراقية الإيرانية مثلما تخوف أمريكا العرب من الهيمنة الإيرانية في الوقت الحاضر لكن عقلاء الطرفين يحاولون التخفيف من حدة هذا الصراع واحتوائه إلى أقصى درجة ممكنه.

خطورة النزعات العنصرية على وحدة الأمة:

الدعوة إلى العصبية والعنصرية والطبقية فيروس العصر الحالي. فالمجتمع العربي والإسلامي أثرت فيهما الموروثات الاجتماعية والعرقية تأثيرًا كبيرًا خصوصًا العصبية القبلية التي تكاد تعصف بكل موروثات الأمة الحميدة فابتليت الأمتين العربية والإسلامية بتصنيف الناس على أساس من العصبية التي كانت أساسًا للنظام الاجتماعي في العصر الجاهلي التي لا تقيم وزنًا لصلاح الفرد وتقواه وخلقه الحسن وتعامله السوي بل تركز على الجاه والمنصب والنسب والحسب والسيادة والطعن في الأنساب والطبقية وغيرها من صفات زميمة كانت معروفة في الجاهلية قبل الإسلام.

والعصبية هي سبب من أسباب الفرقة والتقاتل بين الناس، فالإسلام حذر منها ولا بقاء للأمة مع بقائها وقد تنبأ الرسول ببقاء أربعة خصال من العصبية في الأمة الإسلامية حذر منها فقال صلى الله عليه وسلم: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن الفخر في الاحتساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة".

وقد استغلت أمريكا وإسرائيل الانتماء العصبي وتوظيفه لصالحها وبشرت بنشر الديمقراطية التي تناسب هذا الانتماء العصبي كي تتمكن من تذويب الهوية الإسلامية والعربية وليس التبشير بالديمقراطية التعددية الموجودة في الغرب.

فالطائفية والاثنية طغت على السطح في العراق متسلحة بأنياب المذهب وإظفار المليشيا فأصبح القتل على الهوية الطائفية والشوارع مشحونة في العراق ولبنان، فالمشاريع الطائفية أصبحت سائدة وبارزة باسم الديمقراطية.

انبعاث هذه الروائح الطائفية في أزمة العراق وفي أزمة لبنان والخوف يمكن أن تمتد آثارها إلى بقية أنحاء العالم العربي؛ لأن لهذه الطوائف امتدادات داخل الوطن العربي.

أصبحت أدبيات البعد الطائفي وخصوصًا المتبادلة بين السنة والشيعة حتى وصلت الدعوة إلى نداء من أجل التعبئة الطائفية وخصوصًا على مواقع خاصة بالانترنت فالسنة تصف الشيعة بأتباع عبد الله بن سبأ وهكذا، فاستغلال المشاعر الدينية الطائفية خصوصًا إذا كانت لأغراض سياسية بحته فإنها تسبب الدماء والقتل وظهور جماعات ومليشيات قتالية كما يحدث في العراق.

وسوف تتسبب تلك العصبيات الطائفية في شروخ عميقة في المجتمعات العربية والمسلمة فالعصبية الطائفية نار لن يستطيع أحد أن يطفئها وحتى الانتخابات التي أجريت في البلاد العربية وآخرها في البحرين ذات نفس طائفي وقبلها في العراق فتشبيه الملك عبد الله للوضع في المنطقة بـ (خزان بارود يوشك أن ينفجر)، وهي عبارة يعني بها ما يدور في المنطقة قبل ثورات الربيع العربي،

وحينما نعود إلى منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما أسس لدولة الإسلام واعتبر العصبية أمر من أمر الجاهلية وآخى بين المسلمين فلماذا لا نتبع المنهج النبوي ونتخلص من الأدبيات التي لا تعود علينا بخير بل هي بناء مستطيرة تقضى على الأخضر واليابس والتي حذرنا منها كذلك القرآن الكريم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات:١١]، وكان دائمًا ما يردد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويغضب في حوادث متعددة وكان يقول: "أبدعوا الجاهلية وأنا بين أظهركم"، وفي أحاديث أخرى كان يقول أيضًا: "دعوها فإنها منتنة" بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جعل سلمان الفارسي من آل البيت وبلال الحبشي سيدًا، ولذلك كان يقول الصحابة: "اعتقى سيدنا سيدنا" أي أن أبا بكر اعتق بلال - رضي الله عنهما -، فالعصبية من صفات النفوس الظالمة التي تتعارض مع قيم الإسلام العادلة والتي تنبذ العنصرية والطائفية وتعتبرهما فيروس المجتمع البشري وجعلت من التقوى المعيار الأساس في تقييم المجتمعات المسلمة ولا غير التقوى القائمة على التدين والكفاءة.

والعصبية داء فتاك يؤدي إلى تفكك الأمة وتشرذمها وتصبح لقمة سائغة أمام كل عدو متربص بها وأعداء الإسلام كثر. وبنبذ العصبية استطاع المسلمون الامتداد شرقًا وغربًا وحماة ديار الإسلام هم المسلمون من جميع الشعوب والأمم فالتتار حموا الإسلام في الشرق وقوة فتية زاحفة من أواسط آسيا فتحت القسطنطينية عام ١٤٥٣م أرعبت هذه القوة الأحقاد الأوربية الصليبية مدة ثلاثة قرون على الأقل. وترتبط العصبية ارتباطًا وثيقًا في التجربة التاريخية لأمتنا الإسلامية بسقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م سببه الرئيسي العصبية، فالأمة الإسلامية لم يتمكن الأعداء ضربها من خارجها بل من داخلها عن طريق بث روح العصبية فلم يسقط الدولة الإسلامية في الأندلس ألا

بعدما تقسمت إلى أكثر من عشرين دولة تقاسمها العرب والبربر والعسقالية فانفرط عقدهم في ظل ترامي ملوك الطوائف بالأندلس في أحضان العدو ونفس الشيء ينطبق على الدولة العثمانية حيث تمكنت اليهودية الصهيونية من ضرب دولة الخلافة الإسلامية من خلال بث سموم النزعات العنصرية القومية مثل الطورانية للترك والكردية والبربرية وبقية القوميات الأخرى ضربت الوحدة الإسلامية القائمة على التنوع والشعور بالمصير الإسلامي الواحد.

خطر التعصب على وحدة تماسك الأمة:

دائمًا العقلية المتعصبة تكون في الأغلب عقلية انهزامية، وتشكل آفة خطرة، خطرها ليس فقط على مستوى الفرد بل تتعداه على مستوى المجتمع والوطن.

فالعقلية المتعصبة هي مأساة مركبة، وحالة مأزومة تتجه بشكل تلقائي نحو العزلة والانطوائية، ترفض وتكره كل ما يعارضها، ما يجعلها تمارس الإقصاء والتعنييف والتفسيق والتصنيف. وتعتبر كل جديد وكل غريب وأجنبي هو غزو فكري يستهدف الخصوصيات لذا هي تخشى على الهويات من الذوبان والضياع وتحارب كل جديد و حديث باعتباره غزو صليبي بهدف أمركة وتغريب العالم العربي والإسلامي.

وكل أزمة عندها هي مؤامرة على الأمة، وترفض كل ما يتعارض مع القيم والتقاليد وتعتبره عقيدة ومذهبًا حتى وإن لم يتعارض مع أصول الدين.

هي تكره نقد الذات ولا تؤمن إلا بالتسطيح والحلول القصيرة المجتزئة والسريعة ولا تعترف بالحوار وتستبدله بالتشنج، وتعتبر كل مخالف لها ليس أهلاً للنقاش معها ولا تتردد في رميه بالفسوق والعصيان. وحسن الظن لديها عملة نادرة ولا ترجح من الآراء إلا لعلماء تستسيغهم، وتبدع جهابذة العلماء

وهم بذلك يعكسون قاعدة كلما ضاقت اتسعت إلى قاعدة كلما اتسعت ضاقت، وتجعل من الايدولوجيا نبراسًا لها تهتدي بها في القضاء على الديمقراطية والتعددية وتعارض إنشاء المجتمع المدني باعتباره فلسفة علمانية تفصل الدين عن الحياة والدولة.

وأبرز شكلياتها دعوتها الإغراق في التفاصيل والجزئيات وترقية بعض الظنيات إلى درجة اليقينيات، واعتبار المختلف فيه إجماع يقيني خاص بها لا يجوز الخروج عنه.

أنهم تمركزوا في الزوايا الضيقة ورفضوا مجرد الخوض أو الدخول في البحث عن حلول لقضايا قائمة على اعتبارها مسلمات يصاحبها دائما تشنج قد يصل إلى التهديد بالإرهاب المسلح.

إذًا فالعقلية المتعصبة طريق إلى الغلو والتطرف وهي آفة خطرة على حاضر الأمة ومستقبلها، وتتغذى على إيديولوجيتها أجندات أجنبية هنا وهناك.

والسلوك العنصري المتعصب يؤكده المؤرخ الأمريكي الشهير ريتشارد هوفستارد إن الإفراد والجماعات المتعصبة يظهر عليهم نمط حياة مختلفة عن الآخرين (البارانوي).

ويلفت إلى أن معدلات المرض العقلي ينتشر في الأماكن التي يشيع بين أفرادها التعصب العنصري، وهو يرى أن كل متعصب مريض عقليًا على عكس المريض عقليًا ليس شرطًا أن يكون متعصبًا.

وخلصت الباحثة كريتش في أن التعصب لا يوجد في الغالب إلا بين الشخصيات التي تعاني من السادية ومشاعر العدوان والإحباط وهذه الشخصيات غير قادرة على فهم الآخرين وتعيش عالمًا مملوء بالشكوك الموجهة نحو أعضاء جماعات أخرى. وهذه الشكوك تجد متنفسًا في إظهار هذا السلوك المرضي.

وتعريف التعصب عند كثير من العلماء على أنه نقيض الحرية والتسامح وهو حكم مسبق من دون أي سند أو فحص لحقائق متاحة عن الموضوع الذي تم الحكم عليه من قبل المتعصب.

وينظر إلى المتعصب علميًّا على أنه شخصية سلبية ولكن السؤال المهم كيف ينشأ التعصب؟ فالكثير من العلماء يرجعها إلى التنشئة الاجتماعية والتي تمر بثلاث مراحل الأولى عند مرحلة التمييز بين أفراد الجماعات المختلفة نتيجة التعزيز التفاضلي أثناء عملية التلقي من أقاربه وخاصة الوالدين وبقية أفراد الأسرة، والمرحلة الثانية هي مرحلة التوحد أي انضمام الطفل إلى الجماعة التي ينتمي إليها وتوحده معها، والمرحلة الثالثة هي مرحلة التقويم وظهور علامات التعالي الناتج عن شعور بالنقص تبعًا للحكم الذي يشعر به الطفل بأن بقية المجتمع قد أصدر حكمًا سلبيًا نحو الجماعة التي ينتمي إليها، فتحدث لدى الطفل صورة نمطية عدوانية تميز سلوكه ويكتسب اتجاهات سلبية تجاه جماعات معينة.

وأنواع التعصب عديدة منها العرقية والقومية والدينية رغم أن جميع الأديان تنهى عن التعصب وتدعو إلى التسامح واحترام الأخر وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول: دعوها فإنها منتنة، وكان يقول أيضًا: أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم.

وبذلك فإن الإسلام حارب الشخصية التي تذعن إلى الجماعة بطرق سلبية تنفس من خلالها عن المكبوت ومن مشاعر الكراهية والإحباط وعقد التفوق لأنها تكريس للأنانية وحب الذات تؤدي في النهاية إلى تبرير العدوانية مثلما يدافع الغرب عن إسرائيل حتى أصبح التعصب أفكارًا ومعتقدات دول، وليست مقتصرة على الأفراد فقط. فنظريتا الصراع الواقعي والحرمان النسبي التي تقول: أن المنافسة بين الجماعات لتحقيق مصادر قيمية معينة تنتهي إلى خلق التعصب وهو ما يحدث الآن من سيطرة الولايات المتحدة على مصادر النفط والتحكم فيها ومنعها من الآخرين المنافسين، فغاب التنافس الحر وحل محلها التعصب،

وبسبب أنانيتها للحصول على مكاسب معينة جعلها تبرر عدوانية مرضية وسلوك سياسي عسكري غير مقبول.

وتطلق الدول أو المجتمعات السلوك العنصري المتعصب إذا واجهت ظروف معينة وخوفها من دول أدني أو مجتمعات تحتل مكانة تنافس الدول أو المجتمعات النافذة مثل الخوف من حضارات قديمة وعلى رأسها حضارة الإسلام. فحولت التعصب إلى تعصب ديني الذي أصبح أكثر إشكال التعصب رغم أن البحوث لم تثبت علاقة صريحة بين الدين والتعصب بل أن الدراسات تثبت عكس ذلك بأن هناك تضاربًا بين الدين والتعصب على عكس الأنواع الأخرى من التعصب مثل التعصب القومي والعرقي.

لكن اللجوء إلى التعصب الديني لأن المتسلطون يشعرون بعدم الاستقرار الوجداني وشعورهم بعدم الأمان والقلق والتوتر الناتج عما يتعرضون له من إحباط مما يؤدي بهم إلى البحث عن كبش فداء ليحملوه مسؤولية فشلهم ويوجهوا له عدوانهم مثل الحرب على الإرهاب دون تفريق بين المقاومة ضد المحتل والإرهاب العبثي.

مواجهة الغلو على أساس أنه ظاهرة مرضية وليست حتمية:

منذ عامين كان هناك اهتمام كبير جدًا بالتحول الديمقراطي في البلدان العربية حظي باهتمام داخلي وخارجي كبير جدًا، ولكن في حلقة دراسية عالمية عقدت في القاهرة في منتصف شهر فبراير من العام ٢٠٠٧م أكد فيها الدارسون أن برامج التحول الديمقراطي أصيبت بنكسة، وإن الإدارة الأمريكية أصبحت مشغولة بأولويات أخرى خاصة بعد ما تأكد لها أن الترويج للديمقراطية استفادت منها النظم المعادية للولايات المتحدة.

هناك تحرك شعبي ورسمي واسع نحو التطلع لإصلاح إسلامي يوفق بين الأصل والعصر، والتوثيق بين الصدام الطائفي السني الشيعي الذي اعتبر استمراره انتحار جماعي ينبغي تجنبه.

ولاحظ القادة والمسئولين في العالم الإسلامي تنامي وامتداد النموذج العراقي في أفغانستان ولبنان وفلسطين والصومال والسودان، وقد يمتد ويطال دول أخرى في الجزائر والمغرب وخاصة بعدما نشطت جماعات القاعدة في المغرب والجزائر والانشغال الأخير للولايات المتحدة بتكوين حلف مضاد لإيران.

هذا ما جعل كل من وزراء خارجيته كل من دول إسلامية من بينها باكستان والسعودية ومصر وتركيا وماليزيا واندونيسيا وتركيا بالإضافة إلى الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي جمعهم في لقاء ٢٦ فبراير ٢٠٠٧ م في إسلام آباد لاستكشاف منطلقات وأفكار جديدة لإنهاء الاضطرابات المتنامية في الشرق الأوسط، خاصة وأن الباكستان تواجه ضغوطًا أمريكية كبيرة جدًا في الاشتراك معها في محاربة الإرهاب الذي يقع على أراضيها وبنفس المطالب من قبل الهند، لذلك قام برويز مشرف بزيارة تسع دول إسلامية في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا من أجل التعاون على إطلاق مبادرة جديدة في الشرق الأوسط وتبني تلك المبادرة الملك عبد الله بن عبد العزيز على تدشينها في مكة المكرمة.

فهل يسمح التحركان الرسمي والشعبي في تجاوز محنة تمر بها المنطقة؟ إذا ما أردنا حل مشاكل المنطقة يجب إشراك جميع الدول والأطراف المعنية ولا يمكن استبعاد طرف بأي مصوغة كانت ولابد من توسيع شبكة الحوار مع جميع الأطراف بدءًا من الأخوان المسلمين وطالبان وحماس وحركات المقاومة للاحتلال وكل الحركات الشعبية وكذلك سوريا وإيران من أجل لجم أولاً أجندة الغلاة مهما كان خطرها وقوتها؛ لأنها خطر على حاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها وعلى أجندتها، يتغذى من الوجود الأجنبي وخاصة الولايات المتحدة، ولابد أن ننظر إلى الغلو على أنه ظواهر مرضية وليس ظاهرة حتمية يحتاج إلى تكامل مشترك ورشيد ينطلق من مصلحة الوحدة الإسلامية لا من مصلحة

الولايات المتحدة تتزامن هذه الأجندة بأجندة أخرى لمعالجة أزمات الصومال والسودان ولبنان والحالة العراقية وأفغانستان ودعم مسيرة السلام في فلسطين مع إسرائيل كل ذلك من خلال وحدة المصالح المشتركة.

وجميع أنظمة الحكم تحتكم إلى مصادر رئيسية سواء في الأمور الدينية أو في الأمور الحياتية ففي الأمور الدينية هناك مصدرين أساسيين للمسلمين هما القرآن والسنة، وهناك خلاف حول اعتبار الإجماع مصدر ثالث لكن مصادر الأمور الحياتية تعتبر الكفاءات والقدرات العلمية المبدعة مصدر أساسي لها، ولكن ما يعيق تمكين تلك الكفاءات من شغل واحتلال وقيادة تلك المواقع التي تحتاج إليها الدولة في الديمقراطيات المقلدة مثل العراق إلى بروز المحاصصات الطائفية التي يؤججها المحتل بمكانة واضحة.

وعادة في الديمقراطيات الحديثة يعتبر إجماع الأمة مصدر تشريعي تحتكم لحكمها الدولة ولكن إذا كان هذا المصدر ممتنع في العراق نتيجة الاحتلال والعنف وبذلك لا يصح التأسيس على ممتنع.

فتحل محلها قاعدة التوافق كمصدر تشريعي بديلاً يمكن الرجوع إليها في الاحتكام، وإذا ما اجريت انتخابات حرة نزيهة فإن الاستحقاق الانتخابي وما أفضى إليه من نتائج يصبح مصدرًا للاحتكام.

فكما لشرط الإجماع الممتنع قد يعرقل الحركة الدستورية في الدولة فكذلك لابتزاز الأقلية قيد يعرقل أرادة الأغلبية خصوصًا حينما يكون القرار مرتين بموافقة الأقلية حينها يصبح القرار عرضة للابتزاز السياسية التي تلغي إرادة وخيار شعب بأكمله، وتقيد تعطيل الأداء الحكومي بسبب ائتلافات وتكتلات داخل أي مجلس فاعتماد الأغلبية البسيطة في تشكيل الحكومات أو في اتخاذ عقبة الرئاسة وأغلبية الثلثين في حين تلجأ في القرارات المصيرية التي تهم عموم الأمة إلى الاستفتاءات مثل استفتاء الشعب الفرنسي والهولندي على مدى قبول أو رفض الدستور الأوربي الموحد بينما ينصب هدف المعارضة لديها في تقديم بدائل

للسياسات الحكومية المتعثرة أو التي تراها خاطئة وهي تعتبر ركن هام من تلك الديمقراطيات.

وعندما تلجأ الديمقراطيات المقلدة مثلما هو الجاري في العراق إلى تقييد الائتلاف ذي الأغلبية الطائفية البرلمانية مابين الأكراد والشيعة واستغلال الفرصة في تحرير ضغوط تاريخية لصالح طوائفهم لا تصب في مصلحة بلدهم، فالضغوط هي مقابل الحصول على أثمان مثلما أبدى الأكراد موافقتهم المشروطة على هيئة الرئاسة جعل الطرف الآخر يعتبرها صقوفًا عالية ومحرقة تاريخية فتحولت من مصلحة دولة إلى مصالح طائفية يجب الرضوخ لتلك الإثمان من أجل تحقيق برنامج الائتلاف الذي خاض على أساسه الانتخابات.

فالائتلاف ذي الأغلبية الفائزة أصبح غير قادر على إنجاز الكثير، مما يضعه في مواجهة أمام جمهوره الذي انتخبه حتى أصبح شعبًا يائسًا ومتبرمًا من العملية السياسية التي تجرى في بلده رغم تضحياته في العملية الانتخابية في زمن العنف والتهديد.

كل ذلك يؤدي إلى أزمة وفراغ دستوري بسبب القيود الموضوعة التي تشترط أصلاً تشكيل هيئة الرئاسة بأغلبية ثلثي أعضاء الجمعية الوطنية في العراق. وهذه الهيئة تكون قراراتها بالإجماع وليس بالأغلبية ويكون لها الحق في الاعتراض وبالتالي لا يمكن تشكيل حكومته إذا لم تتشكل هيئة الرئاسة رغم رمزية ومحدودية صلاحيات الرئاسة ولكنها تستطيع أن تعطل مسيرة السلطات التنفيذية بأكملها.

كما أن الحصول على أغلبية الثلثين فإن ذلك يجعل من الناحية العملية إرادة طرف الأغلبية البرلمانية مرتهنة بموافقة الأقلية مما يجعل الأغلبية للابتزاز السياسي من قبل الأقلية خصوصًا وأنها طوائف وليست أحزاب أو توزيع إقليمي أو جغرافي. وما يجرى في العراق وهي أول دولة ممارسة سياسية تؤسس كمستقبل سياسي ديمقراطي هو اللجوء إلى الاحتكام إلى ما يشبه الإجماع والذي هو ممتنع أصلاً بسبب الاحتلال والعنف والطائفية العرقية المذهبية مما يجعل

أجماعها مستحيلاً ولذلك لا يصح التأسيس على ممتنع في الأصل فالوضع في العراق كتجربة ديمقراطية يمكن أن تنجح حسب رأي باعتماد مبدأين أساسيين هما اعتماد الأغلبية البسيطة وليس الإجماع المعتمد على قاعدة التوافق والمبنية أصلاً على الاستحقاق الانتخابي وما أفضى إليه من نتائج لنتغلب على القيود المعيقة للحركة الديمقراطية الحديثة في العراق مستندة على الفيدرالية الجغرافية وليس على الفيدرالية الطائفية أو المذهبية أو العرقية وغيرها.

تفكيك القيود الاجتماعية بالوعي الديني والثقافي:

المجتمع الخليجي يعيش حالة مابين الإفراط والتفريط فكما للتفريط من انعكاسات سلبية على الفرد والمجتمع فكذلك للإفراط وشريعتنا الغراء شريعة سمحة تراعي جميع الأحوال دون المساس بالثوابت وفي الرجوع إليها نجد مبتغانا عند البحث عن حلول لمواكبة العصر ومستجداته.

فالقيود الاجتماعية المفروضة باسم الإسلام تجاه المرأة وغيرها من مجانبة العادات الاجتماعية الأخرى فيها من المبالغة التي هي مثار للجدل، ومثال على ذلك هناك من يريد المرأة أن تكون على شاكلة المرأة الغربية والآخر من يريدها على شاكلة المرأة المحافظة المجمدة التي لا يجوز لها الخروج إلى المجتمع لتمارس مهن تخص المرأة بحجة الاختلاط ومخاطبة الرجال، ورفض معظم الشباب الزواج منها لأنها خرجت على القيود والذهنية الاجتماعية. فهما نظرتان مزدوجتان لا تتماشيان مع روح وسماحة ووسطية الإسلام نتيجة قيود اجتماعية محافظة ومبالغ فيها ترفض قبول المتغيرات الضرورية وتتسبب في مآسي لا حصر لها في زمن لا يرحم بتعقيداته وأزماته ومتغيراته وحاجاته.

وهذه القيود الاجتماعية المتنطعة التي صاغتها الذهنية الاجتماعية مأخوذة من نصوص دينية منتقاة ومن رصيد وعادات اجتماعية لم ينزل الله بها من سلطان فأصبحنا أمام مشكلة اجتماعية معقدة تحتاج إلى مرحلة انتقالية حرجة لمواجهة متطلبات العصر عن طريق وعي ديني بسبب إن تلك المشاكل

الاجتماعية المعقدة ذات ذهنية اجتماعية ضاربة جذورها في الأعماق منذ زمن ليس بالقصير. ومن أجل مواجهة تلك المشاكل نحتاج إلى جبهة مشتركة دينية وثقافية متماسكة لتفكيك تلك المعضلة وإلا فنحن أمام الخيار الآخر وهو الغزو الفضائي المكثف للفيديو كليب والقنوات الفضائية ومثيلاتها من أدوات الاتصال الأخرى على بناتنا وشبابنا تجاه الانحلال والتفكك. فنحن أمام مواجهة دمار خارق لا يرحم ولا يفرق فالأولى بنا العودة إلى سماحة ديننا ووسطيته لئلا نهلك من أجل أن نحافظ على تماسك مجتمعاتنا التي هي القوة الوحيدة المتبقية لنا والتي لا زالت تميزه عن العالم الغربي المتقدم.

والحل الوحيد هو بالعودة إلى حاكمية الكتاب وحجية السنة الصحيحة في إطار كلي وشامل للوحي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]، وألا نتعامل مع ظرفية الأحاديث والسنن بطريقة انتقائية نبدي ما نريد ونتجاوز ما لا نريد خدمة لأهداف ضيقه تضفي عليها الشرعية كما نريد فنصبح مثل قول الله سبحانه وتعالى في اليهود في تعاملهم مع التوراة {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [الإنعام:٩١] جعلتنا نفقد القدرة على الفهم الشمولي والكلي وضرورة الواقع وعلى العكس من ذلك جعلنا الواقع وفهمنا مهيمنًا على القرآن والسنة ونستمد منهما بانتقائية عشوائية لتبرير واقعنا وفهمنا ولم نرتفع إلى غايات النص بل أفرغنا النص في الواقع ولم ندرك تنزيل النص على الواقع، إنه ليس من أجل التبرير والتسويغ وإنما هو من أجل الإصلاح والهداية ومن أجل الهيمنة به على متغيرات الزمان والمكان ونضع حلول يمكن أن تتعارض مع قيودنا الاجتماعية ولكنها لا تتعارض مع الدين وتتناسب مع متغيرات هذا الزمان لئلا تتفكك وحدتنا الإيمانية والحضارية والاجتماعية.

وقد استفحلت قضية التطرف والتشدد بين مجموعة من المسلمين الذين تبنوا أسلوب العمليات الانتحارية والبعض الآخر منهم امتهن العمليات التفجيرية كأسلوب للقتل، على أثر ذلك حاول العديد من المفكرين المسلمين والغربيين أيضًا معالجة جذور هذا الإفراط تارة بالحل العقلاني وتارة بالحل التنويري والاستعانة بأفكار الفارابي وابن سينا وابن رشد وبقية فلاسفة العرب والمسلمين، بالإضافة إلى فلاسفة الغرب التنويريين المشهورين من أجل مصالحة الإسلام بالحداثة، ولم يدرك هؤلاء الفرق الدقيق بين المسلمين والإسلام على اعتبار إن الإسلام دين والمسلمون بشر يصيبون ويخطئون ويتفوقون ويتخلفون كغيرهم من البشر.

وقد حاول المفكر الفرنسي المسلم اريك جوفروا في كتاب خاص له باستلهام مشروع كبار متصوفة الإسلام وتنشيط الاجتهاد الروحاني، لكن من يتمعن في منهج الإسلام يجد أنه دين الفطرة، وفطرة الإنسان التي خلقها الله تتكون من عقل وروح، والإسلام أتى كي يخاطب العقل والروح في آن واحد، ولم يؤثر أحدهما على الآخر، لأن مخاطبة العقل دون الروح يجعل العقل يتوه في التفاصيل التي قد لا يستوعبها، ولم يخاطب الروح بمفردها كذلك حتى لا تميل نحو الرهبانية التي تتعطل بها الحياة التي نهى عنها الإسلام وحض الإنسان كخليفة في أعمار الأرض {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:٢].

ولم يكتف الإسلام بمخاطبة العقل والروح بل جعل من الدين صيانة لهما من الانحراف وكي لا يطغى أحدهما على الآخر من أجل أن تنتصر البشرية للحق على الباطل.

إذا لابد أن نواجه التحجر والتكلس بالمنهج الإسلامي المتوازن وبالجانب الديناميكي المضيء والمستضيء من تراثنا الإسلامي الذي بني حضارة استوعبت العالمين نداوي بها جراحنا وتخلفنا وتصحيح المفاهيم المغلوطة عن ديننا بدلاً من تحميل الغزو الفكري أخطاءنا، وإن كان الغزو الفكري حقيقي لكنه وجدنا بلا

حصانة فكرية دينية وحضارية، لأن القيم الإسلامية بعدما كانت إيجابية ديناميكية خلاقة للحضارات أصبحت سلبية تواكلية مضادة للنزعة الإنسانية والحضارية بسبب توقف وتكلس وتحول الاجتهاد الفقهي إلى قوالب شكلانية فارغة أو مفرغة من كل روح كانت موجودة عند السلف والتابعين، لأننا انشغلنا بالتوافه والشكليات ووضعناها في مقام الأصوليات حتى حل محل التسامح التصور التشاؤمي أغرق مجتمعاتنا الإسلامية في التخلف والتقهقر والجهل بسبب العقلية التواكلية الاستسلامية المضادة لروح القران وجوهر الإسلام الذي صنع المعجزات.

فبعدما كانت الحضارة الإسلامية كونية النزعة ومنفتحة على الكونية والعالمية استوعبت كل الثقافات والحضارات وصهرتها وأخذت عصارتها وجعلت من الدين الإسلامي دين الحرية جعله المتطرفون دين العبودية، وبعدما كان دين التسامح والاعتراف جعلوه دين التطرف.

فجوهر الإسلام ديني وروحاني وأخلاقي وإنساني بالدرجة الأولى ولم يفرض الإسلام قيودًا ولا أصفادًا بل ألغاها {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم:٣٠] {ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ} [التوبة:٣٦].

المبحث الرابع:تعدد المذاهب بناء متكامل

خطر مدرسة الرأي الواحد:

مدرسة الرأي الواحد لا تعترف بالمقولة التي تنسب إلى الإمام الشافعي - رضي الله عنه -: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ويقولون رأينا الصواب، وبقاعدتها هذه تنسف آراء كل المدارس والمذاهب الأخرى، وتحاول أن تجيش الناس وتجمعهم حول رأي مدرستها لذلك تحاول هذه المدرسة إن ترفع الخلاف بين الناس ولا تسمح لرأي آخر بالبروز على رأيها.

ولا تعترف بأن الاختلاف في الفروع وفي الفقه ضرورة ورحمه وسعة. وبسبب شدة اعتدادهم برأي مدرستهم جعلهم ينكرون ويشتدون في تنكيرهم على من خالفهم الرأي وهم بذلك يخالفون اجتماع علماء الأمة على أنه لا إنكار في المسائل الخلافية الاجتهادية إذ الآراء متساوية في نسبتها إلى الصواب والخطأ مادامت صادرة عن غير معصوم قد يكون بعضها أرجح وأقرب إلى الصواب من بعض ولكن تظل العصمة ممنوعة على أي مجتهد وهذا يجعل الصواب أو المرجح في زمن من الأزمنة يصبح ضعيفًا في زمن آخر لتغير المعطيات في الزمن الجديد عن السابق.

خطأ هذه المدرسة أنها لم تحسن الفهم عن الإسلام كما ينبغي وقد تبنت روح المذهب الظاهري دون أن تتسمى به فأخذت منه الجمود على ظواهر

الألفاظ وإغفال الحكم والتعليلات للنصوص، والتقيد بالنص دون النظر إلى ما يكمن وراء النص من علل ومقاصد.

فالدين الإسلامي يوجه أكبر العناية إلى معاصي القلوب وإن لم يغفل الآداب الظاهرة ولكنها لا تبلغ إن يأبى في تركها للوعيد الهادر.

وهذه المدرسة تهتم أو تبالغ في التعصب الظاهري وتصل فئات من هذه المدرسة بسبب غلوها إلى استحلال دماء المسلمين وأموالهم ينطبق عليهم قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في وصفهم: "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان"؛ بسبب مبالغتهم في الأخذ بالأحوط، وأصبحوا لا يرضون أو يقبلون التيسير طريقًا بل يذمون العلماء الميسرين ويتهمونهم بالتساهل في الدين والتهاون بأحكام الشرع فأصبحت البلوى الأقرب إلى ألسنتهم وأقلامهم.

يريدون أن تبقى الحياة كما كانت على عهد السلف الصالح مظهر ومخبأ رغم حرص السلف الشديد على تحريم شيء إلا ما علم تحريمه جزمًا.

وتتجه هذه المدرسة إلى نهج التشدد في الأحكام وتميل إلى المتشددات أكثر من ميلها إلى الرخص وإذا وجد قولان متكافئان أو متقاربان أخذت بالأحوط وتركت الأيسر مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (ما خير بين أمرين إلا أختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا)، ولا تؤمن بالمخففات الموجبه للتيسير على الناس مثل الضرورات أو الحاجيات التي تنـزل منزلة الضرورات متجاوزة قاعدة العلماء إذا ضاق الأمر اتسع والمشقة تجلب التيسير.

إنها بذلك تشوه صورة الإسلام المضيئة وتضر بالدعوة إلى الإسلام وتحويل الدعوة من العالمية إلى المحلية.

الفتنة الشيعية السنية إلى أين وما مداها؟

سؤال يتبادر إلى ذهن كل سياسي وكل مواطن في من يقف وراء الفتنة الطائفية الدائرة بين الشيعة والسنة رغم حذر العراقيين من ذلك بعد الغزو

الأمريكي؟ وما هي المصالح التي يحققها مخططو الحرب ومبرمجوها من تلك الفتنة التي زرعوها والتي سوف تتحول إلى صدام مفجع.

وباستمرار المداهمات في الأنبار وصلاح الدين وباقي المناطق السنية من شأنه أن يخدم التشدد السني مما يساعد في زيادة الهيمنة الإيرانية في العراق، وبالفعل دخل العراق في أزمة نتيجة تمسك المالكي بالولاية الثالثة وثارت العشائر العراقية وأصبح العراق مهدد بالتقسيم.

فالحالة العراقية هي حالة حقن بين السنة والشيعة حتى تحولت شوارع أحياء بغداد مثل مناطق حرب أهلية ويغلق بعض السنة شوارعهم الفرعية بالحواجز ويحرسون مناطقهم في الليل وساعد الجيش الأميركي على بناء قوات المغاوير عندما كان فلاح النقيب وهو سني وزيرًا للداخلية قبل أن يحتكر المالكي في ولايته الثانية بوزارتي الدفاع والداخلية.

وبعد هيمنه الشيعة في انتخابات يناير ٢٠٠٥، وإقامة حكومة مؤقتة وفقًا لما أوردته تقارير من الصحافة ومنظمات مدنية إن كثيرًا من هؤلاء الذين وجدوا مقتولين هم ضحايا المعارك بين السنة والشيعة خصوصًا غرب بغداد.

وهناك جهات تغذي هذا الصراع وهذه الفتنة وسبق أن قبض على شخصين كانا يستعدان للقيام بعمل تفجيري إرهابي على المدنيين وكان يظن أنهما عراقيان فجيء بهما لسجن الجنارية السري الذي كشفته القوات الأميركية مؤخرًا لكشف التعذيب الذي مورس على المليء لتخفيف الضغوط الموجة نحو الانتهاكات التي وجهت في السابق نحو سجن أبو غريب وحينما شعرا أنهما سيعذبان كشفا عن هويتهما وكانا أمريكيين، وقد حدث من قبل في البصره حيث قبض على بريطانيين كانا يقومان بالتفخيخ وإعداد السيارات المفخخة مما يؤكد أن الذين يمارسون الأعمال الإرهابية وقتل المدنيين في العراق هم من قوات الاحتلال لتغذية صراع الفتنة الطائفية ولتشويه المقاومة العراقية المشروعة التي تطالب بإخراج القوات الأجنبية من العراق ولكن ما يؤزم العملية اعتبار الجماعات السياسية العراقية المقاومة إرهابًا، وخلط الأوراق والنظر إلى

كل الأعمال المسلحة التي تجرى في العراق على أنها ضرب من الإرهاب، وعلى أنه من صنيع المتسللين عبر الحدود وذلك بعد هروبها من الواقع ولا يساعد على حل المشكلة العراقية وإن كان مؤتمر القاهرة قد حسم هذه القضية إلى حد كبير بتأكيده على مشروعية المقاومة.

الإسلام واحدًا ومتعددًا:

أقيم مؤخرًا في تونس ملتقى دوليًّا حول موضوع (الإسلام واحدًا ومتعددًا) بالتعاون مع مؤسسة كونراديناور الألمانية وبمشاركة عدد كبير من الأساتذة المتخصصين من دول عربية ناقشوا تاريخ الإسلام الذي لا يخلو بوصفه دينًا حيًّا من جدلية الوحدة وطلب التنوع.

هذا النوع من المؤتمرات والملتقيات يدور حول الحوار في الدين الواحد بمشاركة أصحاب الديانات الأخرى شاركت فيه جميع الفرق وكانت مشاركة الدروز الأولى من نوعها على الصعيدين العربي والإسلامي.

فالإسلام راعى الاختلاف والتنوع ولم يلغ الخصوصيات مثلما راعى الوحي التنوع اللغوي الذي كان سمة من سمات البيئة العربية القبلية المعقدة في عصر التنزيل وبعده ونزول القران على سبعة أحرف. وبما إن الدين الإسلامي أتى للناس كافة فمن الطبيعي أن يراعي التنوع والثراء البشريين على حد سواء فكان مشتملاً على المحكم والمتشابه مواكبًا للوقائع حاثًا على التأويل والاجتهاد وإن كان نهي عن تتبع المتشابه من أجل ابتغاء الفتنة بين المسلمين {هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِيالْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران:٧].

فعالم اليوم بحاجة إلى رؤية واقعية وعملية بعيدة عن رؤية التعصب والغلو المفضيين إلى تقزيم الفكر الإسلامي واحتكار الحقيقة والمعرفة.

ومن أجل التقارب البشري والتخفيف من التوتر يبدأ أولاً من التقارب الإسلامي وهو ما يشكل مفتاح التقارب والوفاق بين الأديان والحضارات.

فالإسلام كدين لا يمتلك أفقًا محصورًا واتجاهًا وحيدًا، وعند البحث العميق في تاريخ الإسلام وحاضره يمكن الحصول على صورة أكثر واقعية للإسلام.

فالنص القراني واحد ولكن له تفسيرات عدة ويحظى حتى الآن باهتمامات إنسانية متعددة المشاريع والمشارب؛ لأن النص المتوحد يتعدد ليفرض استمراريته ومغالبته لحركة الزمن.

من التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى الحوار بينها:

بعد ما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية اجتمع المسلمون تحت أمرة خليفة واحد يتخذ عاصمة الخلافة في المدينة أو في دمشق أو في بغداد، وتحت عوامل طارئة وظروف داخلية انقسمت الدولة الإسلامية إلى دويلات، وأتى على المسلمين حين من الدهر لم يكونوا يملكون من أمر أنفسهم وثرواتهم شيئًا ومزق الاستعمار العسكري وحدة الصف إلى دويلات متناحرة.

والعالم من حولنا يسعى للالتقاء على روابط أوهى من بيت العنكبوت، فالاتحاد الأوربي يسعى الآن بأسلوب الإرادة الحرة إلى تجميع شتات دول عديدة متباينة في اللغات والقوميات والمذاهب ومتناحرة في التاريخ القديم والحديث.

فأحرى بالمسلمين وقد توفر لهم أقوى روابط الاجتماع أن يعتصموا بحبل الله ويتحدوا بأي شكل من أشكال الوحدة سواء أكانت اقتصادية أو سياسية فالاتحاد قوة {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٣].

فالتنوع والتعدد مذهب إسلامي ذو مرجعية دينية خاصة في دائرة الظنيات ضمن المقاصد الكلية والضوابط العامة وقد أشار القرآن الكريم إلى أن التنوع والتعدد آية من آيات الله الكونية {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [الروم:٢٢].

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر:٢٧]. ولخلق آية التنوع والتعدد والاختلاف حكم أراد بها الله سبحانه وتعالى تحقيق غايات وأهداف عديدة. وهي ابتلاء خلقه من أجل بث فيهم روح التنافس التي تدفعهم إلى العمل والإبداع والتطور لتحقيق خلافة الله في الأرض عبادة لله سبحانه وتعالى لتحقيق غاية أنبل وهي روح التعاون والتكامل في إطار من الأخوة الإسلامية.

ومن أجل المحافظة على هذا التعاون والتكامل شرع الله سنة التدافع للحفاظ على مكتسبات الحضارات التي تعاقبت وأنتجتها. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣]. {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١] هذا التعدد والاختلاف يعترف به المنهج الإسلامي.

التعدد المذموم في المنهج الإسلامي:

أولاً: ذات الله واحدة ولا يشاركه في ملكه وعبادته أحد {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [يوسف:٣٩] {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الصمد:١] وتشهد فطرة البشر بذلك.

ثانيًا: تعدد الأديان مرفوض منذ بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن نصدق بوحدة الدين الحق الذي جاءت به رسل ربنا ووضع كل منهم لبنه في

صرحه حتى أكمله الله تعالى برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فكما قال صلى الله عليه وسلم: "أنا اللبنة الأخيرة، وأنا خاتم النبيين"، فالإيمان بالرسالة المحمدية إيمان بوحدة الأديان وبدونه يصبح الإيمان ناقصًا وغير مقبول منه انطلاقًا من قول الله سبحانه وتعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٥].

فإذا بلغ هذا الدين كل فرد أصبح حجة عليه، وإذا لم يبلغه فأمره إلى الله سبحانه وتعالى ويتحمل المسلمون تبعته في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة قدر المستطاع وتصحيح صورة الإسلام المشوهة أولاً؛ لأن الإسلام رسالة عالميه {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧] ويتحمل مسؤولية نشر هذا الدين وإقامة الحجة على الناس أمة الإسلام {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} [آل عمران:١١٠]. فالأصل وتنهون عن المنكر التوحيد وكل ما طرأ على التوحيد من شك {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:٦٤]. وعد الله سبحانه وتعالى تعدد الأديان بعد الرسالة المحمدية عذابًا {إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [هود:١١٤].

وينهى الإسلام عن التفرق والخروج على الجماعة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]K والمقصود أن التعدد من الأمور اليقينية مرفوض ويعد خروج على الجماعة.

فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه وهدى ورحمة لمن تمسك به لقوم يؤمنون

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:٦٤]. أي بعد ما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض.

كما أمر الله سبحانه وتعالى أمة محمد بعدم الاختلاف والتفرق بعدما تبين الحق {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥]. وتكونوا كالأمم الماضية في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد قيام الحق عليهم {فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس:٢٣].

وعن معاوية بن سفيان حينما قدم مكة وبعد صلاة الظهر قال: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة – يعنى الأهواء – كلها في النار إلا واحدة. وهي الجماعة – وانه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله) فقال معاوية: والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به. وهكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحي كلاهما عن ابن المغيرة.

وفي حديث آخر عن الفرقة الناجية قال صلى الله عليه وسلم: (إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن النصارى افترقت على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة) قالوا ومن هم يا رسول الله؟ قال: "ما أنا عليه وأصحابي". رواه الحاكم في مستدركه فقول الله سبحانه وتعالى {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [هود:١١٨] أي أهل

الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

ولذلك خلقهم أي لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال ابن عباس للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب.

إذا كان الإسلام يرفض تعدد الديانات {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٥] ولكن دون إكراه وإرغام للدخول في دين الله بعد ما تبين طريق الحق من الصواب

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦].

التقريب بين المذاهب الإسلامية ضرورة يدعو إليها المنهج الإسلامي لجمع شمل الأمة:

ولكن إذا نظرنا إلى واقع العالم الإسلامي لتشخيص حالته نجده في حالة ضعف وصراع وتشرذم ونزاع وتشتيت وخصومة وفرقة وتخلف وأصبحت كلها أمراض متوطنة مزمنة نتيجة تهويل المصالح والتطلعات الصغيرة الذاتية لتشغل مكانًا ليس لها والغفلة عن المصالح الكبرى.

أي أن الاستغراق في الجزئيات وحول التفاصيل والغفلة عن الكليات والشموليات والأصول.

والفرقة داء بل هو عامل خصومه وتقوقع وهجوم ومن ذلك لم يتمكن العالم الإسلامي حتى الآن من التقريب بين المذاهب الإسلامية رغم انعقاد ندوتين تبنتها المنظمة الإسلامية الأولى في عام ١٩٩١م والثانية في عام ١٩٩٦ كانت الأولى في طهران والثانية في ماليزيا.

والتقريب بين المذاهب مستمد من روح الشريعة الإسلامية ومستوحى من مقاصدها الشريفة لتجاوز الاختلافات المذهبية والارتقاء إلى مستوى المعالجة العلمية وجعل مناط الأمر في الاجتهاد يتجه إلى تحقيق المصلحة المؤكدة للأمة

الإسلامية، وتغليب هذه المصلحة التي هي موضع إجماع الأمة الإسلامية على مصلحة سواها تحقيقًا لوحدة الأمة الإسلامية.

ولا يهدف التقريب إلى توحيد الموقف المذهبي الفقهي بل إلى تخفيف حدة الاختلاف وإشاعة روح الأخوة الإسلامية بالاعتماد بالدرجة الأولى على المصدرين الأساسيين هما القرآن الكريم، وناصح من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والاستناد إلى الجوامع التي توحد ولا تفرق وتقارب ولا تباعد في إطار فقه المقاصد الشرعية وقواعد الإسلام الكلية التي لا يسوغ الخروج عنها أو تجاوزها ترسيخًا للتضامن الإسلامي.

ومن أجل الوحدة تجاوز الثنائيات الجديدة التي من أجلها يشتد الصراع إلى حد الاقتتال كما حدث في الجزائر بين العلمانيين والسلفيين وضحاياه فاقت مائة ألف شهيد، واليوم بين السنة والشيعة في العراق ولابد من فك حصار الزمن والتخفف من ثقل الماضي الحاضر نتعلم منهم ولا نقتدي بهم وإيمان المقلد لا يجوز والتقليد ليس أصلاً من أصول الدين، ولا مصدرًا للعلم بإجماع فرق الأمة، ولكل عصر اجتهاداته وتراثه وإبداعاته.

والإجماع السابق لا يلزم الإجماع اللاحق نظرًا لتغيير الظروف والأحوال وتبدل المصالح لذلك أرشدنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يظهر على كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، لذلك يجب التعايش مع هذا الاختلاف وضبطه والتفريق بين الثوابت والاجتهادات في مجال التنوع والاختلاف وتحديد مرجعيته بالكتاب والسنة وفق الأسس الشرعية لحل الخلاف داخل الصف الإسلامي.

فمنهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان في حل الخلافات بأمور عديدة منها الحكمة والصبر والتبين، وسعة الصدر والاستماع للآخر، وعن طريق الحوار التذكير بالمسلمات وعدم نسيان الفضل، والمصارحة لاحتواء الموقف وقبول المشورة المؤدية إلى سرعة الحل مع أخذ العذر مأخذ الجد، وعدم تسفيه أحدًا أو

الحكم المسبق قبل سماعه أو محاصرته بحواجز نفسيه ليظهر بمظهر العاجز المهزوم.

والحوار احترام للآخرين وفيه حرص على مصالحهم ورغبة في إيصالهم إلى الصواب والتمهيد أمام البحث العقلي {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد:٢٤].

كما أن المنهج الشرعي أسس على البرهان والعقل والتدبر والتفكر لكي يكون الحوار سبيلاً لإيصال الناس إلى الحق.

ويجب أن نعتبر الخلاف طبيعيًّا مادمنا نتفق على الأسس والثوابت الشرعية لكي يبقى الصف موحدًا. ولنا في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأسوة الحسنة في إدارة الخلافات مهما كان قدرها وموقفها للاستفادة منها وتجذيرها وتأصيلها في النفوس.

فما موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من موقف بعض الأنصار من غنائم حنين عندما أجزل في عطائه لقريش وبعض قبائل العرب وعدم إعطائهم منها حتى قالوا: "إن هذا لهو العجب يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم".

فما كان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا الاستماع الدقيق لرأي سعد وقومه بعدما أمر بجمعهم فقال مقالته المشهورة: "يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجده وجدتموها عليّ في أنفسكم ألم آتتكم ضلالاً فهداكم الله وعاله فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا بلى لله ورسوله المن والفضل، ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل قال - صلى الله عليه وسلم -: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم لصُدقتم أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس

محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم -وتفرقوا". (السيرة النبوية ج ٥ ، ص ١٧٦ – ١٧٧).

فالوقفات كثيرة وعديدة وفريدة وكيف تحول موقف التضجر إلى موقف الرضى ولكن هذه هي الطبيعة البشرية، فلم يعتبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الاختلاف في الرأي خيانة أو عدم الثقة في القيادة مادام في دائرته الشرعية ولم يخرج عنها. وكيف أدار الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحوار والإشادة بفضلهم لنزع ما في صدورهم من بذور الخلاف فكان ردهم: (رضينا برسول الله قسمًا وحظًا)، وتدرج الحوار بتذكيرهم بفضل الله ورسوله عليهم: (ألم آتِكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟)، كما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينما سأل سعد بن عباده عندما ذهب إليه لنقل الصورة بغرض الحل فقال له: صلى الله عليه وسلم (أين أنت من ذلك يا سعد؟) قال يا رسول الله: ما أنا إلا من قومي. فلم يأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بضرب عنقه بل طلب منه أن يجمع قومه لإدارة الحوار والمكاشفة بكل شفافية ضمن أدب الحوار.

هذا موقف واحد من مواقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في معالجة الخلافات التي نعدها من منظورنا جسيمة وربما مستعصية وقد تبقى قرونًا طويلة دون حل تتسبب في تصدع الصف الإسلامي. فالاقتداء بمنهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حل الخلافات يمكن أن تعيد إلينا وحدة الصف الإسلامي وهي قوة لا تساويها قوة أخرى.

فالحاجة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية؛ لأن جميع المذاهب جاءت في إطار الاجتهاد المسموح به شرعًا، ولكن الأمة الإسلامية ابتليت بالتعصب المذهبي خصوصًا ما بين السنة والشيعة استغلها أعداء الإسلام لإضعاف قوة المسلمين

فنحن نحتاج إلى وضع آليات للقضاء على هذا التعصب الأعمى الذي يفرق ولا يجمع مع ضرورة فتح الحوار بين السنة والشيعة للتقريب بين المسلمين وجمع كلمتهم.

فالتعصب المذهبي قاد إلى استبداد ديني من خلال سلطات دينية حتى جعلها تدعى التفويض الإلهي والأمامي.

والفرقة داء بل هو عامل خصومة وتقوقع وحتى الآن لم يتمكن العالم الإسلامي من التقريب بين المذاهب الإسلامية رغم انعقاد ندوتين تبنتها المنظمة الإسلامية الأولى في عام ١٩٩١ والثانية في عام ١٩٩٦، كانت الأولى في طهران والثانية في ماليزيا، وتتكرر الدعوة في القمة الاستثنائية الثالثة التي عقدت في مكة ١٤٢٦/١١/٥ عام ٢٠٠٥ التي أقرت ثمانية مذاهب إسلامية بأنها لا تتعارض مع أصول الدين الإسلامي، وجاءت القمة الاستثنائية التي عقدت في مكة في شهر رمضان ٢٠١٢ في ظل ظروف تمر بها الأمة الإسلامية من الأزمة السورية إلى الإبادة التي يتعرض لها شعب منمار المسلم على يد البوذيين لتهجيرهم من بلادهم أي أن هذه القمة تعقد في لحظة حرجة إذ عجز المجتمع الدولي عن إيجاد مواقف تحقق الأمن للمنطقة وتنقذ الشعب السوري من القتل على يد النظام المدعوم من روسيا والصين ومن دول إسلامية كإيران ومجموعات تابعة لإيران كحزب الله وكانت رسالة مكة موجهة لدول المنطقة الإسلامية خصوصًا التي تستغلها أطراف خارجية كذلك وهو عدم الانجرار وراء الطائفية المذهبية البغيضة التي تحولت إلى سلاحًا سياسيًّا وورقة لتعزيز النفوذ، وكان اقتراح الملك عبد الله تدشين الحوار بين المذاهب الإسلامية وأن يكون مقره الرياض لاحتواء هذا الطوفان الذي يأكل الأخضر واليابس والجميع كلهم خاسرون.

والحوار بين المذاهب الإسلامية مستمد من روح الشريعة الإسلامية ومستوحى من مقاصدها الشريفة لتجاوز الاختلافات المذهبية والارتقاء إلى مستوى المعالجة العلمية.

ولا يهدف الحوار إلى توحيد الموقف المذهبي الفقهي بل إلى تخفيف حدة الاختلاف وإشاعة روح الأخوة الإسلامية بالاعتماد بالدرجة الأولى على المصدرين الأساسيين هما: القرآن الكريم، وما صح من حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، والاستناد إلى الجوامع التي توحد ولا تفرق وتقرب ولا تباعد في إطار فقه المقاصد الشرعية وقواعد الإسلام الكلية التي لا يسوغ الخروج عنها ترسيخًا للتضامن الإسلامي وتحقيقًا لقول الله سبحانه وتعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٣]، ومن أجل الوحدة يجب تجاوز الثنائيات التي بسببها يشتد الصراع.

ويجب التعايش مع هذا الاختلاف وضبطه والتفريق بين الثوابت والاجتهادات في مجال التنوع والاختلاف وتحديد مرجعيته بالكتاب والسنة.

ودعوة الحوار التي انتقلت من دعوة التقريب التي فشلت خلال الفترة الماضية في تحقيق أهدافها، وهي دعوة تربط المسلمين برباط الأخوة الإسلامية في المقام الأول والالتقاء على الخير الذي يعتمد على الاجتهاد والحجة ونبذ التعصب والتشرذم والانغلاق والترحيب بالرأي الآخر مادام يعتمد على الحجة والدليل أو في أمور ظنية حتى وإن كانت في الثوابت فيجب ترك الأمر لدعوات التقريب والحوار يتولاها كبار علماء من جميع الأطراف؛ لأن الخلافات المذهبية في ظل الحوار المستنير عامل وحده لا عامل تشرذم مع ما كان عليه السلف الصالح وأصحاب المذاهب الإسلامية أنفسهم من تقديرهم المتبادل وقبول كل منهم رأي الآخر وذم التعصب للرأي فالعصبية المذهبية جنت على المسلمين الويل والفرقة فنحن في أمس الحاجة إلى لم شمل الأمة وتقوية أواصر الأخوة لنصرة الدين وإصلاح حال المسلمين وجعل الخلاف المذهبي وسيلة من وسائل القوة والعلم لا سببًا من أسباب التفرقة والاختلاف والتشرذم على قاعدة يرددها العلماء (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه) فإذا

استمر شحن الأمة بعوامل الفرقة فلم نتمكن من التوحد والدفاع عن أوطاننا ومعتقداتنا أو نكون أمة مهمشة غير فاعلة وغير مشاركة في القرارات الدولية تستمر في التخلف الذي يزيدها ضعفًا وتفككًا وتتخطفها الأزمات من كل جانب فهل نعي هذا الحال؟ بدلاً من أن نستسلم أو نسلم أمورنا لأناس يشحنون أذهان العامة بعوامل الفرقة والدعوة إلى التعصب المذهبي الأعمى الذي لا يحترم الرأي الآخر.

لأن أحد الأسباب الرئيسية التي كانت من وراء ضعف الأمة الإسلامية هو تفرقها وتمزقها نتيجة الخلاف المذهبي بين المسلمين الذي كان أحد الأسباب الجوهرة المانعة لقيام الوحدة الإسلامية وجعل العالم الإسلامي يعيش مأزقًا مأساويًا يتخبط في دجى الظلام الدامس لا يكاد يستفيق من أزمة حتى تسبقه أزمات أخرى فأصبح أسيرًا ومحاصرًا بين رحى تلك الأزمات لا يعرف كيف المخرج.

المخرج الوحيد من هذه الأزمات ومن هذا المأزق الأليم هو الحوار بين المذاهب الإسلامية، واليوم أصبح هناك ملتقى لهذا الحوار تجتمع المراجع الدينية في هذا المركز في الرياض الذي اقترحته القمة الاستثنائية في مكة عام ٢٠١٢.

فالسبيل الوحيد هو أن نجعل الحوار من أولوياتنا وأن يحتل مكانة في تاريخ الإصلاح الإسلامي انطلاقًا من عقيدتنا وديننا استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران:١٠٣]، وحبل الله هو الالتفاف حول كلمة التوحيد كلمة لا اله إلا الله محمد رسول الله وعند الاختلاف والتفرق وجهنا الله سبحانه وتعالى إلى السبيل {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات:١٠].

وألا نسير إلى ما يخالف هذا الهدف فالاعتصام والإخوة هما سبيلان إلى القوة والتوحد والتماسك وعند خروج جماعات من المسلمين عن هذين الهدفين

فأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بإصلاح ذات البين عودة إلى الاعتصام بحبل الله وإلى الإخوة الإسلامية.

فالحوار هو الذي يؤدي إلى التقارب بين المذاهب ليس المقصود منه هو توحيد المذاهب أو صرف كل واحد عن مذهبه؛ لأن هذا ضد طبيعة البشرية والفطرة الإنسانية التي فطر الله عليها البشر ولكن التقريب المقصود منه هو الالتقاء حول المشتركات ونقاط الوفاق وهي كثيرة وأولها كلمة التوحيد وإما نقاط الخلاف فهي في المسائل الفرعية التي لا ينبغي التباعد بسببها.

ودعوة التقارب تختلف دعوة التقريب والتي هي دعوة تربط المسلمين برابط الإخوة الإسلامية في المقام الأول والالتقاء على الخير ليعرف بعضهم بعضًا عبر الفكر الحواري المستنير المنصف الذي يعتمد على الاجتهاد والحجة ونبذ التعصب والتشرذم والانغلاق والترحيب بالرأي الأخر مادام يعتمد على الحجة والدليل فالخلافات المذهبية في ظل الحوار المستنير عامل وحدة لا عامل تشرذم وافتراق وعامل لتدعيم وحدة المسلمين الذي يتماشى مع ما كان عليه السلف الصالح وأصحاب المذاهب الإسلامية أنفسهم من تقديرهم المتبادل وذم التعصب للرأي فالعصبية المذهبية جنت على المسلمين الويل والفرقة فما علينا إلا أن تكون لدينا الرغبة الصادقة في الوصول إلى الحق وبإجراء دراسات مقارنة بين المذاهب الإسلامية الأربع الكبرى السنية والجعفرية والزيدية والظاهرية والأباظية وغيرها من آراء اجتهادية فرعية لجمع شمل الأمة الإسلامية وتقوية أواصر الإخوة لنصرة الدين وإصلاح حال المسلمين وجعل الخلاف المذهبي وسيلة من وسائل القوة والعلم لا سببًا من أسباب التفرقة والاختلاف والتشرذم وهذا التقارب بالطبع لا يمكن أن يكون على حساب الحق خاصة إذا كان في أصول العقيدة على قاعدة (إننا نتعاون فيما اتفقنا عليه من أصول، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه من فروع) أو على قاعدة أخرى يرددها العلماء والمصلحون (نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه)، فبعض الأصول العقدية لا يمكن التقارب حولها ونترك الأمر إلى الله سبحانه

وتعالى بعد تبيان الحق عبر الحوارات الهادئة؛ لأن نصرنا على الأعداء تأخر بسبب شحن الأمة بعوامل الفرقة فأمن العدو جانبنا وأصبح حرًا طليقًا يعبث بنا ما يشاء ولن ننتصر حتى نصبح صفا واحدا {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوص}،[الصف: ٤]، وحينما تصل إلى هذا الصف المرصوص سوف تكون لنا الغلبة ونتخلص من كل المحن المحدقة بنا ونتمكن بعدها من مواجهة تحدي العولمة وتحدي التقدم العلمي وتحدي فرض الإرادة السياسية على العالم من خلال المنظمات الدولية وتحدي الهيمنة الاقتصادية من خلال المنظمات الاقتصادية الرئيسية من خلال المشاركة لا المواجهة ونعود إلى سابق عهدنا في استلام راية السبق والريادة لإسعاد البشرية عندئذ سنكون خير أمة أخرجت للناس.

الدور السعودي في جمع كلمة المسلمين:

منذ إعلان مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ التي كانت تركيا مقرها ومع إعلانه هذا اضطرب العالم الإسلامي وتصاعدت من بعض أقطاره دعوات تنادي باستمرار الخلافة ومبايعة خليفة جديد ومنذ ذلك الوقت دعي الملك عبد العزيز إلى مؤتمر إسلامي يعقد في مكة بعد سقوط الخلافة الإسلامية في تركيا عام ١٩٢٦ ولكنه لم يدرج مناقشة موضوع الخلافة في جدول أعمال المؤتمر لعلمه بأن ملك مصر يريد أن يبايعه المسلمون بأن يكون خليفة للمسلمين ولحرص الملك عبد العزيز على جمع كلمة المسلمين وحينما علمت مصر بأن الملك عبد العزيز لم يدرج مناقشة موضوع الخلافة ولم يدرج في جدول الأعمال حضرت مصر بوفد رفيع المستوى ولكن إيران لم تحضر هذا المؤتمر خشية من أن تعود الخلافة أو القيادة مرة أخرى إلى العرب وخصوصًا السعودية العدو اللدود لإيران بسبب أن المشروع السعودي يهدد أيدولوجية إيران القومية منذ ذلك اليوم.

وأراد الملك عبد العزيز في هذا المؤتمر مناقشة أوضاع الحج من أجل راحة الحجيج وهي رسالة تطمين إلى العالم الإسلامي بأن الدولة السعودية ستكون راعية للحج بعد سيطرة الملك عبد العزيز على الحجاز وإخراج الإشراف منها.

وكان من أبرز المؤتمرات الإسلامية التي انعقدت في الرباط عقب حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ الذي أثار عمق القلق لدى المسلمين البالغ عددهم في ذلك الوقت ٦٠٠ مليون نسمة، وفي جدة عام ١٩٧٠عقد لقاء بحث إقامة أمانة دائمة مهمتها التنسيق والاتصال بالحكومات حتى عقدت القمة الثانية في لاهور عام ١٩٧٤، وكانت قرارات القمة تتعلق بالقضية الفلسطينية وإنشاء صندوق التضامن الإسلامي والتنمية.

ثم عقدت القمة الثالثة في مكة عام ١٩٨١ بعدما استجدت قضايا جديدة بجانب القضية الفلسطينية كغزو أفغانستان والحرب العراقية الإيرانية وحتى مجئ القمة الرابعة في الرباط عام ١٩٨٤ والخامسة في الكويت عام ١٩٨٧ التي كانت تحت عنوان (دورة التضامن الإسلامي).

وبجانب عقد هذه المؤتمرات عقدت عدد من المؤتمرات الاستثنائية لمعالجة الموضوعات ذات الأحداث الطارئة والعاجلة، فكانت القمة الاستثنائية الأولى في إسلام أباد لمناقشة قضية جامو وكشمير وفلسطين، بينما خصصت القمة الاستثنائية الثانية التي عقدت في الدوحة، قطر عام ٢٠٠٣ لتدارس التهديدات بشن هجوم عسكري على العراق والظروف التي تمر بها القضية الفلسطينية ورغم أنهم أعلنوا رفضهم القاطع لضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أي دولة إسلامية وعلى ضرورة حل المسالة العراقية بالطرق السلمية في إطار منظمة الأمم المتحدة وفقًا لقرارات الشرعية الدولية ذات الصلة إلا أن تلك القرارات لم تمنع من ضرب أمريكا العراق واحتلاله ورغم أن الدول الإسلامية قررت عدم مشاركة أي دولة سواء كانت عربية أو إسلامية في هذا الهجوم إلا إننا نجد أن إيران قدمت خدمات لوجستية لأمريكا أثناء احتلالها للعراق.

حتى عقدت القمة الاستثنائية الثالثة بمكة عام ٢٠٠٥، وتعد هذه القمة نقطة تحول في تاريخ العالم الإسلامي الذي تبنت بلاغ مكة وأقرت أن هناك ثمانية مذاهب إسلامية بما فيها المذهب الجعفري والزيدي والأباظي، وإنها لا تتعارض مع أصول الدين.

فالأمة الإسلامية أصبحت لها نظرة جديدة، التضامن في العمل انعقدت القمة الإسلامية الاستثنائية في ظل ظروف استثنائية وفي ظل ظروف حاجة كل كيان إلى الآخر، وحاجة كل دولة إلى الأخرى وكل سعي إلى الآخر لمواجهة التحديات التي ابتليت بها الأمة الإسلامية الداخلية والخارجية في مقتل وأصبحت مهددة ومهمشة وأصبح حتى دينها في دائرة التهم خصوصًا في زمن الحرب على الإرهاب {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩] فهل تتحقق لهم هذه الأمنية؟.

فباتت دول العالم الإسلامي في تلك الظروف تستجدي تلك القمة حتى يكون حبل النجاة الذي يخلصها من التهديدات التي تعيشها بسبب الحرب على الإرهاب وتبعاتها مستغلة الوضع الراهن في العالم الإسلامي الذي يعيش حالة تفكك وتناحر ليزداد تفككًا وتشرذمًا ليسهل السيطرة على دولها وتغذي هذا التفكك من خلال التناحر الطائفي والمذهبي والعرقي. أنها فرصة أيما فرصة للاستنجاد بهذه القمة والخروج بقرارات جماعية توحد الصف وتوحد الجهود ويلتئم لم الشمل أنها ظروف تحدى.

والمطلوب هو تأسيس رؤية موحدة للدول الإسلامية على الخارطة السياسية العالمية مع توجه اقتصادي في التوسع لإقامة مشاريع استثمارية مشتركة وإنشاء منطقة تجارة حرة بين الدول الإسلامية.

ولابد من قطع الطريق على من يبرر الحرب على الإرهاب عن طريق الاهتمام بتبادل المعلومات عن المطلوبين وكل من يثبت تطرفه وإساءته للإسلام أو للدول الإسلامية في توتير علاقته مع الآخر وتشمل حتى أصحاب الفكر

المنحرف والتصدي لهم بكل السبل الممكنة بل لابد من أن يصل التعاون المشترك مع القنوات الغير إسلامية لتصحيح الأفكار الخاطئة عند الطرفين عبر وسائل الإعلام الفضائية وغيرها للقضاء على إيديولوجية صدام الحضارات التي يغذيها متطرف الفريقين.

وعقدت القمة بعد إعداد جيد ومسبق، أعدها علماء وخبراء لخروج قادة القمة بتوافق حول تفعيل آلية العمل في منظمة المؤتمر الإسلامي لإصلاح الأمانة.

وكان مطلوبًا من هذه القمة هو كيفية جمع كلمة المسلمين ليكون لهم وزنًا فاعلاً، وأن يظهروا للآخرين سماحة دينهم ووسطيته.

والجديد في هذه القمة أنه قدم لها مجموعة من التقارير حول استراتيجيات متعددة ومقارنتها باستراتيجيات عمل أخرى في العالم واستراتيجيات الاستفادة من الكفاءات المسلمة في الغرب والإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي فضلاً عن تقديم تقرير حول دور الايسيسكو في تعزيز الحوار بين الحضارات. كما ويعتبر تنسيق العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة أحد الموضوعات التي تشغل بال الأمة في عصر الحرب على الإرهاب والذين يعتقدون إن الحرب على الإرهاب أوقفت نشاط الدعوة. فمن خلال التنسيق المطلوب في وقت تحتاج فيه الأمة إلى المزيد من التعاون والتعاضد بين المؤسسات الإسلامية الرسمية والشعبية والتواصل والتفاهم بين الشعوب والحكومات في البلدان الإسلامية، وتطوير أساليب الدعوة في مواجهة التحديات المعاصرة والتنسيق في الاتصالات مع غير المسلمين.

هذه القمة غير مسبوقة واستثنائية ليس بمعناها الشكلي فقط ولكنها استثنائية بمضمونها وأهدافها خصوصًا بعد ما وصل حال الأمة إلى الشتات والتمزق والفرقة.

إن دقة المرحلة وخطورة التحديات ستفرض على المنظمة أن تدقق، وأن يكون عملها على وجه الدقة بصورة جيدة وسوف تكون هذه القمة مخالفة للقمم الأخرى، وستخرج بقرارات بعيدة عن التبعية الكاملة لأعدائهم والاستقلال

بآرائهم وقراراتهم لخطورة المرحلة والتحديات التي تهددهم وتهدد الجميع قادة وشعوبًا ودولاً؛ لأنها جربت خطورة التبعية المطلقة لأعداء الإسلام والتي جعلتهم أذيالاً منكسرة خلف أعدائهم وجعلتهم غير متمكنين من الاستقلال بأنفسهم وبآرائهم في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، أدت بهم إلى الإحساس بالضعف والتمزق وعدم القدرة على المقاومة فسحت المجال أمام مجموعات متطرفة تقود مقاومة مبسترة نيابة عنهم لتخليص الأمة الإسلامية من تلك التبعية بأساليب صدامية غير محسوبة بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي؛ لكسر الحصار الذي فرضته شعوب العالم الإسلامي على نفسها بسبب تخلفها. فهل يمكن أن نفك هذا الحصار عن أنفسنا هذه المرة بانطلاقة جديدة للعمل الإسلامي تعيد القوة والمكانة العالمية للمسلمين مرة أخرى وتحقق آمال المسلمين؟

فما اتخذته القمة الإسلامية الاستثنائية من قرارات تهم كل المسلمين وهي بداية لأمل طال انتظاره، وأن تكون خطوة على طريق الوحدة الإسلامية.

فالمرحلة تقتضي تكاتفًا بين جميع القادة للتصدي لتلك التحديات الراهنة والخروج من مأزق التخلف والتبعية والتطرف.

إما القمة الاستثنائية التي عقدت في رحاب مكة المكرمة بجوار بيت الله الحرام تتزامن مع ليالي القدر من شهر رمضان عام ٢٠١٢ في ظل ظروف صعبة تعيشها الأمة الإسلامية نتيجة للأزمات التي يواجهها عدد من البلدان الشقيقة خصوصًا سوريا، وما يتعرض له شعب منمار المسلم (بورما) على يد النظام البوذي أي أن هذه القمة تعقد في لحظة هي الأحرج في تاريخ الأمم الإسلامي إذ عجز المجتمع الدولي المنقسم عن إيجاد موقف موحد لتحقق الأمن للمنطقة وتنقذ الشعب السوري الذي يقتل على يد نظام ظالم لا يرحم، بل المشكلة أن هناك أنظمة دولية كبرى في مجلس الأمن تقف إلى جانب النظام هي روسيا والصين نتيجة حسابات سياسية خاطئة والأخطر وقوف إيران المسلمة ومع أذرعها في المنطقة إلى جانب النظام السوري.

وكانت رسالة مكة موجهة لنقد الذات خصوصًا لإيران الدولة الوحيدة التي تدعم النظام السوري من أصل ٥٧ دولة وبدأت المنطقة الإسلامية تتجه نحو الطائفية البغيضة التي هي من صنع دول في المنطقة التي تحولت إلى سلاحًا سياسيًّا وورقة لتعزيز النفوذ، وتريد تثبت السعودية أن ما يدور في سوريا ليست حربًا بين الطوائف بينما هي ثورة ضد الظلم والطغيان الذي يرتكبه النظام ضد شعبه، ومن أجل نزع فتيل النزاع الطائفي فإن الملك عبد الله اقترح إنشاء مركز لحوار المذاهب الإسلامية مقره في الرياض وبالطبع أقر المؤتمرون هذا الاقتراح لتخرج الأمة الإسلامية من واقعها البائس وإيقاف الصراع المذهبي والسياسي الذي يتغذى عليه.

فالسعودية تبنت على مر العصور مؤتمرات إصلاح وتآخ بين المسلمين وخصوصًا أن لمكة المكرمة مكانة حفظها التاريخ في إصلاح ذات البين وتأليف القلوب وجمع الشتات والفرقاء حيث شهدت مكة في عصر الجاهلية حلف الفضول الذي امتدحه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان يدعو إلى الإصلاح وإلى تأليف القلوب والانتصار للضعيف وللمظلوم وكان يقول: شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أن لي حمر النعم وأني انكثه، وفي مسند الإمام أحمد إن الرسول - صلى الله عليه وسلم – قال: شهدت حلف المطيبين والمطيبون هم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو مخزوم، وسمو بهذا الاسم لأنهم اخرجوا يومًا جفنه مملوءة بالطيب وتعاهدوا وتعاقدوا على ألا يخذل بعضهم بعضًا وتعاقدوا جميعًا على أن يأخذوا الحق من الظالم للمظلوم. وبعدما طيبوا أيديهم تعاهدوا وطيبوا الكعبة فسموا بالمطيبين وسموا بالأحلاف لتعاقدهم وتعاهدهم على نصرة المظلوم.

وقد عقد في مكة تحت رعاية الملك عبد الله بن عبد العزيز عام ٢٠٠٦ لقاء بجوار الحرم ضم كبار القيادات السنية والشيعية في العراق بمبادرة من منظمة المؤتمر الإسلامي ممثلة في مجمع الفقه الإسلامي حيث تم خلال اللقاء التوقيع على نص وثيقة مكة المكرمة التي تستهدف حقن دماء المسلمين في العراق وما

يتبع ذلك من اقتتال طائفي وأعمال تشريد وترويع، والسعودية لا تريد تكرار هذا السيناريو في سوريا ما بعد سقوط نظام بشار الأسد ولا تسمح للصهيونية العالمية اللعب على هذا الوتر وتصبح أرض منطقة الشرق الأوسط خصبة لتنفيذ مخططات التقسيم الجاهزة لديهم.

واحتضنت السعودية التجربة الثالثة في مكة لتفويت الفرصة على الدول الكبرى أن تقسم المنطقة على أسس طائفية بعد التجربتين السابقتين في الطائف بعد احتضان النزاع اللبناني ما سمي باتفاق الطائف عام ١٩٨٩ الذي وضع حدا للحرب اللبنانية، والوفاق الأفغاني الذي عقد في مكة عام ١٩٩٢ في زمن الملك فهد بن عبد العزيز وخرج الاجتماع باتفاق على وقف الاقتتال بين الفقراء.

بالطبع إن العالم الإسلامي يعاني أزمات متفرقة في العراق اليوم وفي الصومال والسودان وأفغانستان تحتاج إلى تضافر الجهود لإيقاف نزيف الدم وتحقيق الأمن والسلام والاستقرار في ربوع الأمة المسلمة خصوصًا بعد عودة الاستقرار إلى مصر وتونس وليبيا؛ لأن خيار المسلمين ليس محصورًا بين الحكم العسكري والدولة الدينية المهم قدرة الحكم الذي يوفق بين الديمقراطية والتنمية وبين المصلحة الوطنية والمصلحة القومية وبين خدمة المصالح الاقتصادية الوطنية والتعامل مع العولمة وبين المحافظة على الهوية الثقافية والذات الديني والمشاركة في الحضارة الإنسانية لأن التخلف ليس حتمي على المسلمين بل كان المسلمون على مدار العصور السابقة أمة قوية استطاعت نشر دينها في أصقاع العالم حتى سقوط الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤.

المبحث الخامس: قدرة الإسلام على إدارة ورعاية التعددية

حرية المعتقد:

سبقت الشريعة الإسلامية الغراء المواثيق الدولية والدساتير المحلية منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان إذ أقرت الحرية الدينية في قول الله سبحانه وتعالى {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [البقرة:٢٥٦]}، ولكن كيف نوفق بين تلك الآية والآيات الأخرى وحديث ابن عباس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (من بدل دينه فاقتلوه). إذ لوحظ أن كثيرًا من العلماء يرى أن الحدود لا تثبت بحديث الآحاد وأن الكفر ليس مبيحًا للدم وإنما المبيح هو محاربة المسلمين وفي عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - حدث في حالة عبد الله بن سعد بن أبي السرح أنه آمن ثم ارتد ولكنه أخذ يؤلب قريشًا على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأهدر دمه فلما كان فتح مكة لاذ بعثمان بن عفان وكان أخاه في الرضاعة فغيبه حتى اطمأن الناس ثم أحضره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وطلب له الأمان فصمت الرسول - صلى الله عليه وسلم - طويلاً ثم أمنه فأسلم، ولابن تيمية رأي في قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قتل المسلم لا يباح إلا بثلاث: (النفس بالنفس والثيب الزاني والمارق من الدين المفارق للجماعة)، فالسببان الأولان لا علاقة لهما بالردة بينما المارق من الدين المفارق للجماعة يقول يحتمل أن يكون المحارب قاطع الطريق لا المرتد وهذا

الحديث الصحيح تفسيره ليس محل اتفاق بين الفقهاء فسفيان الثوري يقول أن المرتد يستتاب أبدًا ولا يقتل.

ونهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن قتل المنافقين وقال: (لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه)، ولكن إذا كانت حرية الاعتقاد مكفولة فإن التلاعب والخروج على النظام العام وجماعة المسلمين يعد تلاعبًا ويهدد الوحدة الوطنية وهو يرتبط بواقعة مؤامرة اليهود ذكرها القران الكريم {وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَا كْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران:٧٢] بهدف تحطيم الجبهة الداخلية للمسلمين وزعزعة ثقتهم بدينهم هذا ما فهمه أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من القبائل العربية التي امتنعت عن دفع الزكاة واعتبرها ردة سياسية وتحطيم جبهة المسلمين الداخلية فحاربهم إي أن محاربتهم ليس بسبب منع الزكاة فقط، بل لأنهم هددوا وحدة الأمة وسيادتها واستقرارها على الخضوع للسلطة الشرعية.

فالإستخلاف في الأرض يقوم على حرية المعتقد وحرية الاختيار {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة:٢٥٦]، والقرآن والسنة لا يتناقضان خاصة وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقتل مرتدًا ولا زنديقًا إلا محاربًا لله ورسوله.

فتقدير حكم الردة متروك للحاكم خصوصًا إذا ما جاهر المرتد بردته وهدف بذلك التغرير بالبسطاء وتعريض وحدة الأمة للخطر والانقسام والتفكك.

نداء مكة لمواجهة تحديات الانغلاق:

بعد نهاية الحرب الباردة برزت إلى الساحة نظريات عديدة أهمها نظرية (صدام الحضارات) لهنتجتون، ونظرية (نهاية التاريخ) لفوكوياما، وعلى أثر

هاتين النظريتين دخل العالم في صراع مرير وعزز من هذا الصراع أحداث الحادي عشر من سبتمبر فأصبح العالم الإسلامي طرف أساسي في هذا الصراع بل فرض عليه هذا الصراع.

فتنبه خادم الحرمين الشريفين إلى أن الحوار بين الأديان هو النواة الأساسية لحوار الحضارات كي يقطع الطريق على الحاقدين على الإسلام أو الجاهلين بحقيقته والذين استطاعوا إلى جر المتحمسين من المسلمين إلى الدخول في هذا الصراع غير المتكافئ أو صراع بلا نهاية كي يتحقق هدف تشويه صورة الإسلام لإيقاف مدة.

وعندما أدرك خادم الحرمين إلى أهمية الحوار سعى إلى افتتاح حوار بين الأديان في مكة تحت اسم (نداء مكة) في ٢٠٠٨/٦/٤ لمواجهة تحديات الانغلاق، والجهل وضيق الأفق التي روجت له نظريات الصدام من أجل أن يستوعب العالم مفاهيم وأفاق رسالة الإسلام الخيرة من دون عداوة واستعداء خصوصًا عندما تنطلق الدعوة إلى الحوار من مهبط الرسالة المحمدية ومن بلد السعودية حاملة لواء الإسلام المنفتح منطلقة من آيات الانفتاح التي نزلت في مكة المكرمة ذات البقعة المباركة التي تشع بالنور للناس كافة {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} [الروم:٢٢] {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} [هود:٦١]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣].

هذه هي منطلقات الحوار لتشمل كافة الفئات التي تؤمن بوحدة البشر من أجل إعمار الأرض بتنوع إنساني وديني أي أنهم مدعوون باسم الله إلى التعارف والتفاهم والاتصال وإزالة كافة العوائق بين البشر.

فالحوار ليس أداة لمحاسبة الآخرين على ظلمهم بل هو دعوة إسلامية عالمية لتعريف الناس بسماحة هذا الدين وانفتاحه على البشرية وتفنيد التشوهات الملصقة به وإبراز حقيقته كي تجعل الكثيرين من أتباع الديانات الأخرى يعترفون بحقيقته وهناك الكثير من المفكرين الغربيين ممن طعنوا في هذا الدين، ولكن بعد اطلاعهم ومعرفة حقيقته تراجعوا عن غيهم وطعنهم في هذا الدين ومن أمثال هؤلاء فولتير الذي ألف مسرحية تدعى التعصب عام ١٧٤٢ تهجم فيها على الإسلام وضمن المسرحية وصفًا معتديًّا بذيئًا نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وحينما قرأ كتاب (سيرة حياة محمد) لمؤلفه هنري دي بولونفيري عام ١٧٢٠ تأثر به وتراجع عن تعصبه وألف فولتير كتابه (بحث في العادات) عام ١٧٦٥ مدح فيه الإسلام وأشاد بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن.

فالحوار يكشف ويفضح أدوات التعصب ضد الإسلام التي شوهت صورته بشكل متعمدًا أو نتيجة جهل الغرب بالإسلام ونتيجة ضعف أدوات المسلمين مقارنة بأدوات الغرب.

الدين الإسلامي وقدرته على إدارة التعددية:

كانت نبئوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - خاتمة الرسالات، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء بُشر به عيسى بن مريم {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} [الصف:٦]، وكل الرسل أنه لدعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الأحقاف:٩]،

{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٥]، والتعددية هي في التشريع {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة:٤٨]، ولم يفرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - الدين الإسلامي على من لم يؤمن به بعد إقامة الحجة البينة والواضحة عليه {مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة:٩٩] {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية:٢٢]، {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦].

وبعدما انتشر الإسلام في جزيرة العرب قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب، رضي الشيطان بأعمال تحقرون بها.

وكثير من المسلمين لم يتمكنوا من التفريق الدقيق بين دعوة الإسلام إلى الوحدانية وقبول مظاهر التعدد وتعبيراته، فحاولوا اجتثاث أصوله التي هي نتاج حركة التاريخ ودورة الحياة العامة والتي هي من السنن الإلهية وقوانين الحياة.

فالتوجه نحو إلغاء التعددية بممارسات قاسية وشنيعة أسهم في إعادة تركيز الوعي بالفوارق الثانية والمذهبية التي ما لبثت أن انفجرت بعنف مضاعف في مناطق عديدة من عالمنا العربي والإسلامي، وكلما اتجه العالم نحو الاندماج لم يتمكنوا من الانفتاح والتعامل مع تغيرات العولمة الجديدة نتيجة إيمانهم وتمسكهم بحالة من العمى الإيديولوجي الوبائي الذي لم يتمكن من رصد الوقائع والأفكار والسلوكيات واستشراف مالاتها المنطقية.

فمحاربتهم للتعددية جعلت المجتمع يميل نحو أوهام الغلبة المطلقة والمستحيلة، وهذه الغلبة تظهر بشكل خادع أنها متحققة لطرف دون طرف، ولكنها سرعان ما تؤول إلى كوارث تعود لتترتب على الطرف الذي يتوهم الغلبة بأنه يثار لإيديولوجيته، ويحقق مصالحه الذاتية بالغلبة المطلقة الموهومة، وبذلك

هو استبدل غلبة الحق بغلبة الوهم الباطلة التي تجعله يفرض على الآخرين مجرد الإذعان كمقدمة للاستحواذ الفكري أو الديني أو السياسي أو غير ذلك.

وترفض هذه الفئة الاعتراف بالتعدد والاختلاف إطلاقًا وتتجه إلى تجذير وتوطين إيديولوجيتها بدلاً من التوفيق المنهجي والواقعي بين الإيمان بوحدانية الله والاعتراف بالتعددية في شتى شؤون الحياة.

فأوليات التضامن تقتضي استنهاض إشكال وتشكلات التعددية الفكرية والسياسية والاجتماعية والاعتراف بالتنوع والاختلاف وتعدد المذاهب ويكفي أن تتحقق الغائية الإلهية والشروط الإنسانية التي تقتضي ترسيخ وتجسيد قناعة من أجل بلورتها وتعميمها مع الإبقاء على مساحة محفوظة لمراعاة الخصوصيات، ولا مانع بأن يتواجد تمايز يتحقق من خلاله تكامل وظيفي لأن الدين الإسلامي قادر على إدارة ورعاية هذا التنوع والتعدد بجميع مكوناته.

فالإسلام يمنع الغلبة لأي فئة بين المسلمين تحت أي ذريعة بينما يؤكد على مفاهيم التداول والتبادل والتكامل والتعاون والتشارك وغيرها من مفاهيم تعزز من السلم والاستقرار الاجتماعي والعالمي.

الدفاع عن الحرية من أسس الدين الإسلامي الحنيف:

لم يأتي فتح في التاريخ أعظم من فتح مكة، وهذا الفتح لم يأت عن طريق الحرب أو عن طريق بسط القوة والهيمنة بل أتى نتيجة توفير جو من الحرية، ولكن كيف يتوفر هذا الجو من الحرية؟

فرسول أمة الإسلام ضرب أروع الأمثلة للدفاع عن الحرية، ولم تتوفر مثل هذه الحرية إلا بعد صلح الحديبية التي رأى فيها صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه صلح مجحف في حق المسلمين، لأن قريشًا وضعت شروطًا مجحفة في هذا الصلح، بأن يرد الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل من يسلم، بينما على العكس قريش لا ترد كل من يرتد عن الإسلام، ولكن من أجل توفير

وبسط الحرية قبل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا الشرط المجحف في حق المسلمين.

ويعّلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - صحابته وأمته بأن الحرية لا يمكن ممارستها في جو من التوتر والعنف والحرب، فبعد أن كان عدد المسلمين في صلح الحديبية حينما ذهبوا لأداء العمرة ١٤٠٠ شخص وصل عددهم في فتح مكة بعد سنتين فقط من صلح الحديبية بعدما نقض المشركون هذا الصلح إلى أكثر من عشرة ألاف شخص وتزايد هذا العدد نتيجة توفر جو من الحرية الذي نتج عن صلح الحديبية ولولا هذا الصلح لما توفر جو من الحرية.

فالحرية لا يمكن ممارستها إلا في جو من السلام، والحرية هي الوحيدة التي تجعل الناس يصرحون بآرائهم الحقيقية ويفتح باب الحوار وباب المناظرات وهنا يتغلب صوت العقل على بقية الأصوات الأخرى، وبسبب إن دعوة الإسلام هي دعوة سلمية تقبلها العقلاء من الناس من دون إكراه وتبنوا هذه الدعوة ونشروها في كافة أصقاع الأرض، وانتهى عهد الوثنية في جزيرة العرب بعدما انهار مركزه الأساسي في مكة.

ويؤسس الإسلام لمبدأ يغيب عن الكثيرين من الناس سواء من المسلمين وخصوصًا المتشددين منهم وكذلك أعداء الإسلام وهو إن القتال ضرورة وليس هدف أو غاية لنشر هذا الدين، لأن الله سبحانه وتعالى نهى المسلمين عن مقاتلة غير المسلمين ولا يجوز قتال أحد من الناس إلا إذا كان معتديًا بل إن الله سبحانه وتعالى نهى عن الاعتداء على من لم يعتدي على المسلمين {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة:١٩٠] بينما يستشهد بعض المتشددين من المسلمين بآيات أثناء القتال مثل قول الله سبحانه وتعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:١٢٣] {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ

فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [البقرة:١٩١]، والعالِمْ دائمًا ما يرجع الآية المتشابهة إلى الآية المحكمة فالآية الأولى محكمة يرجع إليها الآيتين الآخريتين.

والرسول - صلى الله عليه وسلم - دشن عهد الحرية ودافع عنها، لذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينما ذهب هو أصحابه لأداء العمرة: (إنا لم نجئ لقتال أحد ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد أنهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددناهم مدة ويخلوا فيما دخل فيه الناس فعلموا وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لاقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره).

فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوا إلى الحرية وإذا دعت الضرورة فإنه يحارب من أجل توفير جو الحرية وليس من أجل إكراه الناس على الدخول في هذا الدين كما يفهمه بعض المتشددين من المسلمين لأن الناس أحرار فيما يؤمنون {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة:٢٥٦] {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس:٩٩] {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [الغاشية:٢٢]، والمتشددون لا يتمكنون من التفريق ما بين المحكم والمتشابه ولا ما بين الديني والسياسي بسبب أنهم يدلون بدلوهم من دون علم متعمق في حقيقة هذا الدين.

لذلك نجد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحرص على السلم حتى زمن الحرب فقد قال لعلي - رضي الله عنه حينما - أعطاه الراية لقيادة الجيش حينما كان متجهًا إلى خيبر بعد نقضهم العهد: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك من حمر النعم)؛ لأن القتال ضرورة ولردع الظلم فقط وليس مندوحة ولذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاثبتوا).

هذه المقدمة الطويلة هي توضيح من أجل إبرام الاتفاقيات مع جانب العدو الإسرائيلي خصوصًا بعد المتاجرة بالقضية الفلسطينية من قبل الأنظمة

الاستبدادية ومن قبل الأنظمة القومية التي جعلت القضية الفلسطينية والمبادرات والاتفاقيات والمفاوضات ممرًا وشعارًا لتحقيق أهدافهم القومية.

وبعد أحداث الثورات العربية وخصوصًا الثورة السورية التي كانت مختطفة القضية الفلسطينية وباعتها للمشروع القومي الإيراني واليوم ضمن ترتيب أوراق المنطقة ما بعد الثورات فإن القضية الفلسطينية ستعود إلى العرب مرة أخرى ويجب ألا ننكر بأنها قضية إسلامية ولكن لا يقبل أن يتم المتاجرة بها من أجل تحقيق مصالح قومية.

فزيارة خالد مشعل إلى الأردن بعد ١٢ سنة قطيعة وتعلن حماس رفضها للوطن البديل الذي تروج له إسرائيل وبعض الدوائر في أمريكا كحل للقضية الفلسطينية وترفض حماس في نفس الوقت مشاريع التوطين كذلك.

فالقضية الفلسطينية ارتبطت بواقع المسلمين واحتلال فلسطين على مر التاريخ يحدث عندما يضعف المسلمون، فعندما ضعفت الخلافة العثمانية وكانت تسمى بالرجل المريض وهذا واقع الدول العربية والإسلامية ما بعد الخلافة العثمانية وحتى اليوم، وكما ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الدول تتطور مثل الكائن الحي بكل مراحله حتى يصل إلى الكهولة، وسواء كانت نظرية ابن خلدون صحيحة أو غير صحيحة ولكن سنة الله في خلقه عدم الثبات {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [آل عمران:١٤٠] من أجل التدافع وإحقاق الحق {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٢٥١].

فتمكنت بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت من تقسيم أملاك الدولة العثمانية التي هزمت في الحرب العالمية الأولى، ثم أتى دور الولايات المتحدة الصاعد بعد الحرب العالمية الثانية ودافعت عن أمن إسرائيل حتى اليوم، ومرت القضية الفلسطينية بعد ذلك بعدد من الحروب غير المتكافئة بين العرب وإسرائيل حتى عقدت قمة الخرطوم بعد هزيمة عام ١٩٦٧ وسميت بقمة اللاءات الثلاثة أي لا للاعتراف بدولة الاحتلال ولا للسلام ولا للتفاوض إلى إن

جاءت المبادرة العربية التي أقرت في قمة بيروت عام ٢٠٠٢، وكان صاحب هذه المبادرة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز باعتبار أنها تعترف بواقع العرب والمسلمين وتعتبرها صلح حديبية لإعطاء العرب والمسلمين الفرصة لإعادة ترتيب أوضاعهم، وسمى هذه المبادرة أيهود ولمرت بالتغيير الثوري وامتدحها؛ لأنها تتجه لإحلال دولتين بعدما كان يرفض العرب مثل هذه الحول.

وأتت هذه المبادرة بعدما فشلت المفاوضات التي انطلقت منذ عام ١٩٩٣ في أسلو، ولكن نتيجة اختطاف إيران القضية الفلسطينية اختلطت الأوراق وفشلت هذه المبادرة أيضا واستمرت إسرائيل إلى مزيد من تهويد الأراضي واتساع دائرة الاستيطان ولا يزال العرب يعانون من مرحلة الثورة في سوريا ومرحلة ما بعد الثورات في بقية الدول العربية الأخرى وهي منشغلة اليوم بقصقصة نفوذ إيران في المنطقة العربية وإعادة مشروع عربي متماسك قادر على فرض واقع جديد في المنطقة.

إسلام المساواة والتعددية المساواة ما بين الجنسين:

موضوع المساواة ما بين الجنسين أخذت حيزًا كبيرًا من النقاش على المستوى العالمي، وأنا هنا حينما أناقش مثل هذا الموضوع فأنني أناقشه بعيدًا عن وجهات نظر العرف والتقاليد وخصوصًا الملتحفة بالآراء الدينية التي تسببت في إحداث صراع ما بين المجتمع الذكوري والأنثوي، وحتى وجهة نظر الإسلام فإن هناك عدد من المفاهيم، وحتى مقالي هذا يعتبر أحد تلك المفاهيم، لأن الحق المطلق فقط في الكتب السماوية المنزلة على رسل الله المعصومين من الخطى وهم الوحيدون الذين يقدمون الحق المطلق بينما ما عداهم فإن الحق لديهم نسبي بحسب مفاهيمهم لهذا الدين.

ويجب أن نفرق ما بين المساواة والتعددية فالله سبحانه وتعالى خلق الذكر والأنثى وخلق الفقير والغني لحكم إلهية عديدة من أجل التكامل والتعاون

باعتبار أنهم مستخلفون على هذه الأرض، وأن عليهم أن يأخذوا بسنن الخلق التي خلقها الله سبحانه وتعالى لهم.

لذلك حينما يقول الله سبحانه وتعالى {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ} [آل عمران:٣٦] {لرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا} [النساء:٣٤]، وهي لا تعني عدم المساواة بل تعددية وتوزيع للأدوار من أجل تحقيق التكامل والتعاون.

ومثل هذه الفوارق قد أوضحها لنا رسول الإسلام في خطبة الوداع الذي أفرد جزء كبير في هذه الخطبة للمرأة فقال - صلى الله عليه وسلم -: (ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هن عوان (أي أسيرات) عندكم ليس تملكون شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، إلا وإن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فإما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، إلا وأن حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن) رواه مسلم.

والكثير من المسلمين ومن غير المسلمين لا يفهمون معنى العديد من أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (يا معشر النساء فإني رأيتكن أكثر أهل النار) وفي حديث آخر تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين اذهب للب الرجل الحازم أحداكن، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم قلن بلى قال: فذلك من نقصان دينها).

فقد فسر الرسول - صلى الله عليه وسلم - نقصان العقل بنصف شهادة الرجل بسبب إن المرأة خلقها الله عاطفية من أجل تربية الأطفال والصبر عليهم فسبب عاطفتها تلك جعل الله شهادة الرجل بامرأتين كي تذكر أحداهما الأخرى.

ولذلك أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر الرجل على المرأة ولا يقيمها لأن مثل تلك العاطفة ضرورية ومطلوبة في الأسرة، ولذلك قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا) أخرجه الشيخان وفي رواية لمسلم. وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يبغض مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلق رضي منها آخر) رواه مسلم، وقال صلى الله عليه وسلم: (إن من أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وألطفهم بأهله) رواه الترمذي، وقال صلى الله عليه وسلم: (خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)، وقال صلى الله عليه وسلم: (فاتقوا الله في النساء فأنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف) رواه مسلم.

ولذلك فرض الله على الرجل الإنفاق على المرأة ولم يكلف المرأة بالعمل رأفة ورحمة بها، ولكن إذا أرادت المرأة العمل فلا يحق للرجل أن يمنعها فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا استاذنت امرأة أحدكم فلا يمنعها) رواه البخاري.

وكثير ممن يستشهد بحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة) رواه البخاري، وهناك العديد من التفسيرات لهذا الحديث ترى بأن هذا الحديث يقصد به الولاية الكبرى والبعض الأخر يقول: إن لهذا الحديث خصوصية؛ لأن في كتاب الله امتدح الله سبحانه وتعالى ملكة سبأ التي أسلمت مع سليمان وأقرها سليمان عليه السلام على ملكها.

كما إن قول الله سبحانه وتعالى في كتاب الله يساوي ما بين المرأة والرجل في قوله تعالى {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة:٧١]، وهذا الأمر لا يتحقق إلا في مجتمع مفتوح، وكانت المرأة على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم كثيفة - الحضور في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تكن هناك جدران فاصلة مثلما يعملها المسلمون اليوم في كثير من الأقطار، وقد أرسي الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أمته توجيه مهم جدًا وهو أن القضية هي قضية تربية وإقناع لا قضية قمع وترهيب مثلما يحدث اليوم في التعامل مع المرأة في أجزاء كثيرة من أنحاء العالم الإسلامي.

بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يتعامل مع المرأة مثلما كان يتعامل مع الرجل فكان يزور النساء عند مرضهن وعن أم العلاء رضي الله عنها قالت: (عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مريضة فقال: أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة).

فكانت للمرأة كافة الحقوق فقد أجارت أم هاني ابن بيرة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم من أجرت يا أم هاني .

وكانت المرأة تشارك حتى في الحوار بحضرة الرجال فعن مسلم بن عبيد: إن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو جالس بين أصحابه فقالت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء كافة فأمنا بك وبإلهك، وأنا معشر النساء محصورات قواعد بيوتكم، ومقضي شهوتكم، وحاملات أولادكم، ثم قالت فما نشارككم هذا الأمر والخير؟ فالتفت إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال لهم: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها أحسن من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا امرأة تهتدي إلى مثل هذا.

وعن أم عطية - رضي الله عنها - قالت: (غزوت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبع غزوات أخلفهم في رحالهم فاصنع لهم الطعام وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى) رواه مسلم، وعن أنس قال: (كان يغزو رسول الله

بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى) رواه مسلم.

وقد قتلت صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم يهودي كان يتجسس على المسلمين في غزوة الخندق وقاتلت نسيبة بن كعب المازنية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة أحد وكذلك أم عمارة التي كانت تداوي الجرحى.

وكانت أم العلاء الأنصارية تعالج المرضى وعولج عندها عثمان بن مظعون حتى توفي، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بضرب خيمة لرفيدة الاسمية لمداوى الجرحى بعد معركة الخندق وداوت سعد بن معاذ.

وكانت امرأة يقال لها الحواء العطارة فكان صلى الله عليه وسلم يأنس لها ويزورها وكانت تبيع العطور وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته قال: أين الحولاء العطارة؟ ويسأل صلى الله عليه وسلم: هل ابتعتم منها اليوم شئ؟

وقد روى الشيخان عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها – قالت: تزوجني الزبير وماله في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شئ غير ناضح، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، واستقي الماء وأحرز غربه، وأعجن وكنت أنقل النوى من أرض الزبير على رأسي وهي مني على ثلثي فرسخ.

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما – قال: (طلقت خالتي، فأرادت أن تجد نخلها فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بلى جدي نخلك فإنك عسى أن تضعي أو تفعلي معروفًا) رواه مسلم، كما جاءت ربطة بنت عبد الله الثقفية زوجة عبد الله بن مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (إني امرأة ذات صنعة فأبيع وليس لأولادي ولا لزوجي مالاً فيشغلونني عن الصدقة فهل لي في النفقة عليهم أجرًا؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لك في ذلك أجر ما أنفقت عليهم).

فيجب أن يعرف المسلمون قبل غيرهم حقيقة دينهم الذي يساوي ما بين الجنسين في جميع الحقوق والواجبات والتكاليف وأن الفروق التي أقرها الإسلام ما بين الجنسين هي توزيع أدوار من أجل تحقيق التكامل والتعاون؛ لأن الرسول

صلى الله عليه وسلم كان يحرص على تماسك الأسرة التي هي لبنة المجتمع لأنها إذا صلحت الأسرة صلح المجتمع.

الدين الإسلامي مرجعية وليس قومية :

هناك الكثير من الجدل فيمن يربط ما بين القومية العربية والقومية الإسلامية رغم أن الفارق كبير جدًا ما بين الاثنين فالدين الإسلامي مرجعية دينية وليس قومية؛ لأنه دين عالمي وليس محلي أو فئوي {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧] ولم يكن الدين الإسلامي مرتبط بالعرب فقط ولكنه نزل بلغة العرب والنبي عربي فارتبط هذا الدين باللغة العربية والعرب وهذا لا يجعل الدين الإسلامي يتصف بالقومية.

وهناك دولة إسلامية وليس دولة دينية إذا كان عدد المسلمين في الدولة هم الغالبية العظمى، بينما لفظ الدولة الدينية يختلف عن الدولة الإسلامية تمامًا ، لأن لفظ الدولة الدينية لفظ كهنوتي، أي أن هناك واسطة ما بين الله والناس وينقض هذا الاعتقاد قول الله سبحانه وتعالى للملائكة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة:٣٠]، ومن هنا أتى مسمى دولة الخلافة، ولكن هذا لا يعني مسمى الدولة الدينية

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة:١٨٦].

لذلك فإن هذا الكهنوت يتعارض مع توحيد الله سبحانه وتعالى؛ لأن الدين الإسلامي يرفض أن يكون هناك أوصياء على البشر أو رقباء على ضمائرهم وحتى لا يحتكر أحد من البشر الحقيقة باعتبار أن الحقيقة نسبية وباب مفتوح

خصوصًا للتجارب العلمية التي لن تتوقف إلا بقيام الساعة، ولذلك عزز هذا التوجه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى إن تلقيح النخل ليس ضروريًا فأخذ الصحابة برأيه صلى الله عليه وسلم، ولكن حينما لم يثمر النخل فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم (إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم اعلموا بشؤون دنياكم) هذا درس عظيم علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى يوم القيامة.

لذلك تختلف الحقيقة بحسب مفاهيم البشر ومستويات التعلم الذي وصلوا إليه، لهذا يعترف الدين الإسلامي بتعددية المفاهيم وبتعددية الآراء، ما سمح إلى وجود مذاهب عديدة في هذا الدين واتسع نطاق الاجتهاد وفق قاعدة ليس لأحد الحق مهما رسخت قدمه في العلم، وكان علماء الإسلام الكبار يعتبرون أنفسهم مجرد مجتهدين وقد يكون الحق مع مجتهدين آخرين.

بينما نجد مشكلة بعض الجماعات الإسلامية على مر العصور السابقة وحتى اليوم ترفض مثل تلك التعددية، وتحاول فرض رؤيتها الأحادية، وإنها الوحيدة التي تعتبر نفسها تمثل الدين وأن الآخرين مارقين عن الدين أو لا يمثلونه مما يتسبب هذا في احتكار الدين وفي التصادم مع الآراء الأخرى المعارضة لها وتدخل في صراع يصل إلى التنافر والاقتتال.

ويترك الدين الإسلامي الفرد بأن يكون هو الرقيب على سلوكه بشرط ألا ينتهك حرية الآخرين أو يثير مشاعرهم، ويرفض الدين الإسلامي بأن يكون ما بين العبد وربه أي واسطة، وهذا لا يتعارض مع مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤]

{ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل:١٢٥].

فمصطلحات الدولة المدنية والعقد الاجتماعي والعقد السياسي مصطلحات ليبرالية حديثة اشترك فيها الفلاسفة المسلمون والفلاسفة من غير المسلمين في اقتباس مثل تلك المصطلحات من وثيقة المدينة التي وقعها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة مع المسلمين واليهود مثل أبو زيد في سويسرا الذي أتى أباه من الأندلس هربًا من التفتيش في أسبانيا وفرنسا واشترك أبو زيد مع جان جاك روسو في القرن الثامن عشر والذين تحدثوا عن أصل اللامساواة والظلم بين البشر، وكالعقد الاجتماعي، وهي مصطلحات لا تتعارض مع مفاهيم السياسة الشرعية في المرجعية الإسلامية التي هي في الأصل اجتهادية وليست من ثوابت الدين الإسلامي وبذلك هي قابلة لاستيعاب مفاهيم جديدة تصب في صالح علاقة الفرد بالسلطة.

ومن أكثر المصطلحات التي تطورت مع المسيرة الإنسانية مصطلح العقد الاجتماعي الذي استخدم خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باستخدامات مختلفة، وقد كانت هذه الفترة من أخصب مراحل تطور الفلسفة السياسية على مر العصور، وكان من أبرز فلاسفة تطوير هذا المصطلح الفيلسوف الألماني وكذلك روسو الفيلسوف الفرنسي ولوك الفيلسوف البريطاني، والتي مثلت نماذج ثلاثة لاستخدامات مفهوم العقد الاجتماعي لتنظيم العلاقة ما بين أفراد المجتمع من جهة وما بين الحكم من جهة ثانية وهو قابل للتطور اليوم لتشكيل فكرًا جديدًا يتماشى مع الثورات العربية الحديثة، خصوصًا بعدما هيمنة الجماعات الإسلامية على الحكم.

السلفية ... منهج:

هناك عداء غريب للسلفية ولإتباعها لا يمكن فهم أسبابه، والسلفية هي منهج وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيرية كما في صحيح البخاري: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) والخيرية التي يقصدها الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث هي التطبيق، وفي صحيح مسلم إن

الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله إذا أراد رحمة أمة قبض نبيها فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها).

ودافعت السلفية طوال العصور الماضية كمنهج عن طغيان العقل على النقل وكذلك وقفت حائلاً ضد مصادرة النقل العقل ووقفت حائلاً أمام طغيان الخرافات التي تقصي حقيقة الوحي والنبوة قد تكون هناك مبالغة من بين بعض الإتباع ولكن من الخطى تحميل السلفية وزر الإتباع.

وحفظ الله سبحانه وتعالى هذه الأمة كما في الحديث (إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) لتطهير هذا الدين مما علق به من الخرافات والجهل به أو الانحراف عن شرائعه.

ومن الغريب أن يساوي البعض بين الصهيونية ودعوة المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي دعوة لم تكن موازية بقدر هي تنقية الدعوة المحمدية مما أصابها من البدع والخرافات وإحياء للدين الصحيح الذي أتى به الوحي على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا سبيل لإيجاد نوع من التوازي أو التماثل وتشبيهها بالبروتستانتية التي انفصلت عن الكاثوليكية في القرن السادس عشر.

ولكن لماذا كل هذا التركيز على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب دون الدعوات الأخرى في أنحاء العالم الإسلامي وهل لأنها خرجت من قلب الجزيرة وإحياء لدعوة جامعة فوق القبيلة والعرق والجغرافيا مكنت العرب من تخطي حالة التمزق القاتلة، وجعلت علاقة الفرد العربي لا تتعين فقط بقبيلته بل بدينه كفكرة جامعة وموحدة تساوي جميع الأفراد أمام منظومة أخلاقية وسلوكية جديدة حلت محل المعايير القبلية التي فرقتهم ووضعتهم في مواجهة دامية ونقلت السلطة من شيخ القبيلة إلى سلطة الدولة وتبقى سلطة الدولة ببقاء الدين وظهور هذا الدين بقوة سلطة الدولة هذا النموذج الذي يفوق أي نموذج بشري آخر تشربه العرب وأصبح دين يعبدون الله به وحملوه كرسالة نقلوها إلى أرجاء العالم خارج أرض الجزيرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فإحياء هذا النموذج على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يحبط مخططات الصليبيين الهادفة إلى غرس الطائفية والمذهبية في بلاد العرب لأنها الوسيلة الوحيدة للهيمنة عليهم وعلى بلادهم.

فالبون شاسع بين السلف الصالح وبين بعض من ينتمون إلى السلفية، فمنهج السلف الصالح قائم على تعدد الرؤى متنوع المدارس، بينما منهج بعض من ينتمون إلى السلفية الجمود المعتمد على منهج دعوي ينتمي لصحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عاشوا في عصر قد خلا وتغيرت ملامحه ومعطياته بالكلية أدى بهم نتيجة التمسك بهذا الخطاب إلى التحجر والتكفير والتفسيق لكل من يخالف منهجهم، وقد تسبب ذلك في ضياع شعوب ودمار بلدان لحق بالأمة الإسلامية أذى ما كان ليحدث لو أن منهجهم كان الأخذ بالأصول ومراعاة الحاضر المعاصر بدلاً من اختزالهم منهج دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوة صحابته وأهل السنة والجماعة؛ لأن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن الإنكار على كل من خالف في الفروع.

ولم يراعوا تعدد الخطابات الدعوية بحسب حال الأمة وإن لكل خطاب زمان ومكان ومعطيات، وإن الخطاب والفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال، لكن تحميل الناس على خطابات وفتاوى زالت حيثياتها ومعطياتها تحميل للسلف الصالح ما لا يحتملوا، فمثل التحذير من الشرك ومن البدع قد يكون اليوم غير واقعي لأن هناك وعي ديني في زمن عصر العولمة عن ذي قبل، لكن ظهرت مستجدات نتيجة عصر العولمة منها اقتصادية واجتماعية هي بحاجة إلى خطابات تتناسب مع تلك الظروف والأحوال تساهم في معالجتها بدلاً من تركها تتضخم وتصبح خطرة على المجتمعات المسلمة.

بل أصبح حتى أبرز العلماء المخالفين لهم في الرأي في موضع شك وتنفير الناس منهم، وقد يصل الأمر إلى اتهامهم بالجهل والضلال ورميهم باتهام بأنهم علماء سلطة، ومن أبرز أخطائهم إيرادهم للآيات دون مناسبة ولا ملائمة،

فأصبحت هناك خطورة شديدة جدًا عندما تورد آيات عظام في أمور الخلاف الفقهي وهي مدعاة لنشوء فكر التكفير والتفسيق للمخالف.

وكان السلف الصالح - رضوان الله عليهم - شديدين الحرص في الاستشهاد بالآيات واستشهادهم بها في مواضيعها المناسبة؛ لأنهم تربوا على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في احترام الرأي المخالف، لذلك نجدهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أصبحت لديهم مذاهب ومدارس فقهية عديدة غير المذاهب الرئيسية الأربعة المشهورة؛ لأنهم كانوا يلتزمون بقول الله سبحانه وتعالى:{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} [النحل:١١٦].

وقد أدرك الصحابة - رضوان الله عليهم - إن التحليل والتحريم في الذنب سواء حتى ولو كان من باب سد الذرائع وتغليب للسياسة الشرعية احتياطًا.

وكانوا رضوان الله عليهم حريصون أيضًا قبل التحريم أو التحليل أن يعرفوا حد المسألة المراد تحريمها أو تحليلها وما يخرج منها وما يدخل فيها كي يبتعدوا عن الجمود والتقليد.

فالتحجر بحجة إتباع السلف يجعلهم يرمون المخالف بالزيغ ومتبع للفتنة الذي يخالف المنهج السلفي الذي هو منهج تأصيلي رباني متكامل يعتبر مرجعًا منهجيًّا لا مذهبيًّا للمسلمين من بعدهم الذي يحرص على الأخذ بالقيم الفكرية مثل الريادة والاستجابة والتحقق والتأكد والترجيح والمقاربة وقبول الأخر أيًّا كان.

فنحن بحاجة إلى إحلال الحقائق مكان الأوهام؛ لأن الأمة أصابها مغالاة في الاعتناء بالشكل في تطبيق السنة وإعلاء شأن المظهر على المخبر والبعض لا يعرف من السنة إلا الصورة وفرض الأمور الخلافية الذي جعل من الواسع ضيقًا وحمل الإسلام تبعات ما كان ينبغي له أن يتحملها وما يترتب عليه من تفكيك الأمة وتشتيتها؛ لأنه كان عليه أن يتصالح مع العرف الذي لا يتعارض مع الدين ولا يليق النظر إلى الأمور في إطار المذهبية المحضة أو في إطار ادعاء الإجماع.

الجدل حول مفهوم البدعة:

هناك فريقان يتجادلان حول مفهوم البدعة فريق وسع معنى البدعة، وفريق آخر ضيق معنى البدعة، ولكل فريق أدلته واقتباساته.

فالجدل يدور حول حديث كل محدثة بدعة وهناك آيات وأحاديث تبدو للبعض وكأنها متناقضة. فالآية {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة:٣]، وحديث أن الله يبعث على كل رأس مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها.

يخلط البعض بين أصول الدين وفروعه، فالأصول هي يقينيات لا تتغير بتغير الزمان والمكان بينما الفروع هي ظنيات تتغير بحسب الاجتهادات بحسب المكان والزمان.

ولا خلاف بين العلماء حول البدعة في غير الدين. ويرى العلماء أن البدعة هي التي تخالف أصول الدين ونصوصه والخلاف يتحدد حول البدعة المرتبطة بأمور الشريعة مما لا يخالف أصولها ونصوصها وقواعدها ومقاصدها الكلية بل اعتبرها الموسعون لمعنى البدعة بأنها قد تكون ممدوحة أو مذمومة مقياسها الاجتهاد والمبني على نصوص هذا الدين فإذا كانت موافقة لأصول الدين تكون بدعة حسنة وإذا كانت توافق نصوص الشريعة الكلية وقواعدها العامة فهي جائزة، والبعض الآخر اعتبرها سنة واجبة حتى وإن لم يفعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بعكس الفريق الآخر المضيقون لمعنى البدعة التي يرونها بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وفسروا معنى البدعة هي كل ما لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا خلفاؤه الراشدون وإذا لم يكن من هديهم فيجب تركه.

ولكن الحكم على معنى البدعة كحكم الضلالة يجب ألا يقتصر فقط على ترك السلف لهذه البدعة هو ضلالة بل البدعة المخالفة لأصول الشرع ونصوصه هي الضلالة وليس كل ترك يقتضي التحريم كما يراها الفريق الثاني.

ولدى الأصوليين ليس كل نهي يقتضي التحريم بل أحيانا يكون النهي يقتضي الكراهة إلا إذا دلت القرينة على التحريم. وإن كان هناك فريق محايد يرى من الأفضل التوفيق إذا كان النهي يقتضي الكراهة والانتهاء حينما تدل القرينة على التحريم.

ويعرض حديث كل بدعة ضلالة على حديث آخر وهو (إن الله حد حدودًا فلا تعتدوها، وفرض لكم فرائض فلا تضيعوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وترك أشياء من غير نسيان من ربكم، ولكن رحمة منه لكم، فاقبلوها، ولا تبحثوا فيها) رواه الحاكم، وفي حديث آخر (ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله العافية فإن الله لم يكن نسيا) وفي رواية فان الله لم يكن لينس شيئًا ثم تلي هذه الآية {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا} [مريم:٦٤] رواه الحاكم.

فالحديثين هنا يدلان على إن ما ترك الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بيانه فهو في دائرة العفو والسعة فلا يجوز تحريمه لمجرد لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا صحابته الكرام إلا إذا دلت نصوص واضحة على تحريم ما شابهه وماثله. بل إن هناك أشياء لم يفعلها الرسول صلى الله عليه وسلم لا يثقل على أمته فقال في أحد أحاديثه: (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) رواه مسلم، وعن عائشة - رضي الله عنها – قالت: (إن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم) رواه الشيخان، وبعد تلك الأحاديث فلا داعي التجادل في جزيئات لا تصاحبها قرينة تدل على حرمتها.

مفهوم الجماعة:

إن مصطلح أهل السنة والجماعة تبلور أواسط القرن الثاني الهجري باعتبار أن القسم الأول يمثل الدين والقسم الثاني يمثل الدنيا والمقصود في الجانب الأول إتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم بأركانها التعبدية عقيدة وفقها، أما القسم الثاني ينصب على مشاركة جماعة المسلمين في إدارة شئونها الخاصة والعامة التي تخضع لتدبير المصالح العامة.

وتعامل العلماء من القسم الأول اعتقادًا وإتباعًا وتعلمًا ، بينما تعاملوا مع القسم الثاني اجتهادًا وظل هذا التقسيم طوال العصور الماضية باعتبار أن الإسلام كدين هو المرجعية لهذين القسمين، لكن شهد القرن العشرين تغيرات على يد الجماعة الإسلامية والإخوان المسلمين حول مفهوم الجماعة للوصول إلى تدبير ذي شرعية لشؤون المسلمين انتهى بهم الأمر إلى القول بمرجعية الشريعة وليس الجماعة في إدارة شؤون العامة أو شؤونهم، فأصبح الدين والدنيا كل لا يتجزأ.

انتهى عهد الثنائية فبرز على الفور تناقض ومواجهة بين الدين والدنيا والشريعة والجماعة وأصبحا على طرفي نقيض بعدما كانا يسيران جنبًا إلى جنب ومن هنا بدأت بعض المجموعات المتشددة اتهام المسلمين بالخروج عن الدين تارة وصل الأمر إلى بعض من المتشددين إلى تكفير جماعات من المسلمين وبالأخص الحكام بسبب أنهم لا يطبقون الشريعة الإسلامية ومن هنا برزت فكرة الحاكمية (حاكمية الشريعة) الاتجاه نحو الاستيلاء على السلطة من أجل فرض تطبيق الشريعة، ادخل هذه الجماعات في صراعات مع حكام مجموعة من الدول فأصبحت هدفًا خصوصًا في تركيا زمن أتاتورك أو في الدول التي كانت ترزح تحت السيطرة الروسية واتجهت بعض الدول إلى إضعافها من قبل ثوريي الدول الحديثة باعتبارهم عقبة أمام أي تحديث.

وعلى عكس الدول الأخرى كانت السعودية داعمة للمؤسسة الدينية ووسعت من نشاطها، وكانت المؤسسة الدينية طرفًا في المساهمة في عمليات

التحديث، أدى إلى بروز طائفة متشددة ترفض مرجعية المؤسسة الدينية وحجيتها، وحاولت الحصول على شرعية إضافية من إتباعها مستفيدة من نزوعها الاحتجاجي أطلقت على نفسها (السلفيون الجهاديون).

أما في الدول الأخرى فأنهم يريدون من حكام دولهم تطبيق الشريعة الإسلامية وقسموا العالم إلى فسطاطين، وهذا الواقع بحاجة إلى معالجة من قبل المؤسسات الدينية لإعادتهم إلى التوازن العقدي والاجتماعي والسياسي؛ لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) لإعادة دور الجماعة كمرجعية، وكذلك قول الله سبحانه وتعالى {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان:٥٩].{الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِا لْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج:٤١].

كما أن على المؤسسات السياسية في العالم الإسلامي عدم اتباع سلوك الإلغاء أو الاصطفاف الذي لا يؤدي إلا إلى بزوغ الصراع والنزوع نحو الاحتجاج والى ظهور جماعات ثائرة وعنيفة.

الخلافة الإسلامية ليست أصلا من أصول الدين:

لم يرد بيان في القرآن ولا في السنة عن كيفية تنصيب الخليفة أو تعيينه، لهذا انقسم المفكرون والعلماء إلى فريقين فريق اعتبر الخلافة الإسلامية واجبًا شرعيًا بعد إن سقطت الخلافة العثمانية في تركيا، وفريق آخر وعلى رأسهم على عبد الرزاق الذي ألف كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي اعتبر أن الخلافة الإسلامية ليست واجبًا، لكن تصدى الكتاب ولمؤلفه مشيخة الأزهر باعتبار أنه هدم حكم الإسلام وشرعه وتفريق لجماعته وفيه إباحة لعصيان الله ورسوله في جميع الإحكام الشرعية والسنة النبوية واعتبر ذلك بدعة.

وقد تشبع الشيخ على عبد الرزاق بتعاليم الإمام المجدد الشيخ محمد عبده فأدرك أفكاره، وعرف أن هذه الأفكار هي خلاصة أيضًا ما كان يدعو إليه التجديد على الجمود جمال الدين الأفغاني وحاول أن يخلص هذا الدين مما علق به من أفكار ترهلت، وحالت بين حقيقته وبين الممارسة التي تتم باسم الدين على مر التاريخ.

فالخلافة أصلاً هي صورة من صور الحكم تجتمع فيها السلطة والسياسة في يد الحاكم مع وجود شورى وإن أي حاكم غير النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما هو بشر يصيب ويخطئ.

وإن كان الإسلام لا يرى دائمًا إن الكثرة وحدها دليل على الحق وهو ما تتبعه الديمقراطية الانتخابية الغربية {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف:١٠٢]، وإنما معيار الإسلام التفريق بين الطيب والخبيث {قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة:١٠٠].

لكن الإشكالية في اجتهاد بين أقلية وأكثرية في اختيار الحاكم أو الموافقة على قرار سياسي أو اقتصادي، وكان رأي الشيخ على عبد الرزاق الأخذ برأي الأغلبية فيما لا تقوم فيه الحجة القاطعة برأي الخبراء والعلماء وهو السبيل الذي لا سبيل غيره لتقرير مصائر الأمة في إدارة دفة الأمور لأسباب متنوعة ولا يمكن حصرها في خصومة مع الحاضر والمستقبل، وتنحاز لفكر السلف وما تركوه على أساس أنه ملزم بحكم قدمه واستقراره ومن الخطأ أن يعزى هذا الموقف إلى الاعتقاد الديني بإلزام (النصوص) إذا كان هذا الموقف. وأن يصبح ميراث الأقدمين دينًا رغم أنه مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي كما سجلته الكتب السماوية باعتباره موقفًا غير مقبول من وجهة نظر دينية وصفه القرآن وصفًا دقيقًا {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [البقرة:١٧٠].

وهذا ما أوجد حالة من الانشطار عند بعض المسلمين حيث ولد في نفوسهم الشك والحذر من كل محاولات الاستفادة من التعامل مع غير المسلمين والأخذ بأفكارهم على اعتبار أنها ولدت ونمت خارج الإطار الإسلامي وفي غير داره.

الشورى لم تحدد آليات بل تركتها للمجتمعات حسب حاجات كل عصر:

يعاني العالم العربي من أزمات آخرها كان في تونس عندما ظل بن علي في منصب الرئاسة عبر تزكيته في جولتين متتاليتين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٤ حتى أقام أول مرة انتخابات تعددية عام ١٩٩٩ في خطوة وصفها المراقبون بتحصيل الحاصل حيث كانت نتائجها محسومة سلفًا لصالحه، وأجري بن على تعديلات دستورية في مايو عام ٢٠٠٢ على المادتين ٣٩ و ٤٠ التي خولت له حق الترشح للانتخابات لمرة رابعة تكرر الموال عام ٢٠٠٩.

وتكاد تكون أغلب المفاهيم والمصطلحات الفكرية قد تم العبث بها في العالم العربي خصوصًا، وتراوح هذا العبث المنظم بين العشوائية ووصل في الكثير من المصطلحات إلى حد التدمير الكامل بل وإنتاج مصطلح بديل يكرس التخلف ويعمل على اتساع الهوه ومنها الديمقراطية وقد تكون بشكل مقصود لاستمرار الأنظمة الشمولية.

إلى الآن لم يتحول العرب إلى مصدر المعرفة التي يعتمدها القرآن من السير في الأرض والنظر كيف بدأ الخلق، والمراحل التي مر بها الإنسان (الأطوار) بلغة القرآن والأرض تتحدث بأخبارها. فإذا تعلمنا اللغة التي يتحدث بها الكون سنأخذ صورة صحيحة، وسنقترب من الصورة التي ينبغي أن نكدح للوصول إليها.

الإنسان خلق جديد وحديث ويتغير بتغير تصوراته عن الكون وكشفه سننه وقوانينه، ولا يمكن فهم هذا إن لم نفهم قدرات الإنسان وكيفية استثمارها.

ونحن نعاني من مشكلة المعقول والمنقول ومشكلة النصوص، ونحن لم ندخل إلى عالم قراءات آيات الآفاق والأنفس.

كيف يمكن فهم تخلف العالم العربي؟ هذا العالم الضخم الكبير الذي لا يوازي ضخامته وغناه إلا عجزه الذي يراه القاصي والداني، ولكن لا قدرة له على التكيف والدخول إلى العالم الجديد.

هناك صراع في العالم الإسلامي وخاصة في العالم العربي بين فئاته فطرح فكرة الشورى كبديل عن الديمقراطية التي نشأت في بيئة غير إسلامية والمرفوضة أصلاً من الإسلاميين وعلى العكس من ذلك يرى الليبراليون إن الشورى أبعد ما تكون عن فكرة العقد الاجتماعي والمشاركة الشعبية الواسعة وهي لا تستند إلا إلى قاعدة (أهل الحل والعقد) وهم طبقة ضيقة من المجتمع.

وما المانع من اعتبار الديمقراطية آلية من آليات الشورى وتوسيع قاعدة (أهل الحل والعقد) في هيئة برلمان منتخب إذا كان ذلك يساهم في التخلص من تعثر الأمة العربية واندماجها في المنظومة الدولية وفق استحقاقات المرحلة الراهنة حتى لا تكون بؤرة تحدى تواجه البشرية ولن تحمل الدين مسؤولية فشل المؤسسة الحاكمة والناطقة باسمه، وعلى العكس من ذلك فالدين الإسلامي دين ثابت ومتماسك ولماذا نرفض الديمقراطية وديننا يستوعب دعائم الديمقراطية ويكفلها شرعًا دون الاصطدام بها.

لأنها مجرد مطلب أمريكي أو نربطها بين الهجمة الأمريكية والديمقراطية وكأنه يتعين علينا من باب الغيرة الإسلامية والوطنية رفض الديمقراطية لأنها مطلب أمريكي مشبوه وسيء السمعة.

أو لأنها هي تخلط بين ثقافة الغزو والاحتلال وثقافة الديمقراطية وتكون ذريعة للأنظمة العربية في الاستمرار في الاستبداد والانغلاق والتعثر.

بل إن الديمقراطية الداخلية هي لإنقاذ النظام العربي من الضغط الأمريكي باسم الديمقراطية.

وتطبيق الديمقراطية والمصالحة مع الشعوب قوة أمام مزيد من التنازلات في السياسة الخارجية على حساب السيادة الوطنية.

أما موقف التيار الإسلامي الرافض للديمقراطية للتناقض بينها وبين مبادئ الإسلام على اعتبار أن الديمقراطية هي حكم الشعب ويقابلها حكم الإسلام أنه حكم الله وهذا من قبيل الحق الذي يراد به الباطل. وهو إساءة للإسلام وكلمة حكم الله هي تبرير للحكم بالإكراه.

ولكن البعض منهم اعتبر الديمقراطية النيابية هي أقرب الأنظمة للإسلام ومن أبرزهم الشيخ حسن البنا زعيم الأخوان المسلمين.

كما يرون إن الديمقراطية ولدت في القرن الثامن عشر وكان مجملها دعوة للانسلاخ من حكم الدين في كل مجالات الحياة بدلاً من أن تكون السيادة لله أو لمن أعطاها الله له كما كان في السابق.

والنقد لم يكن فقط من قبل الإسلاميين بل من قبل الغرب أنفسهم فروسو يرى أن الأمة الانجليزية حرة أثناء الانتخابات لأعضاء البرلمان، ولكن مجرد أن ينتخبوا فإن العبودية تسيطر عليهم.

كما يرى البعض أن الديمقراطية ليست ديمقراطية خالصة بل هي ديمقراطية مقيدة بالليبرالية أي يتكون المجتمع من أفراد لا من أسر أو تجمعات وتعتبر الفرد هو أساس المجتمع أي أن يترك الأفراد أحرارًا يختارون ما يشاءون وعلى الدولة ألا تتدخل إلا تدخلاً اضطراريًا الغرض منه حفظ حقوق الأفراد.

فالليبرالي هايك يرى أن الديمقراطية في جوهرها وسيلة، أنها أداة عملية لضمان الأمن الداخلي والحرية الشخصية فليست هي بهذه المثابة معصومة ولا مضمونة. كما يجب أن لا ننسى أنه كثيرًا ما تحقق قدر من الحرية الثقافية والروحية في ظل حكم مطلق أكثر مما تحقق في بعض الديمقراطيات.

والديمقراطية هي "احترام وتحكيم إرادة الأمة في تحديد شكل ومضمون سلطة الدولة انطلاقًا من المساواة القانونية بين مواطني الدولة".

وإن كان هناك فرق شاسع بين الديمقراطية الفكر والنظرية وبين الديمقراطية الفعل السياسي وأسلوب الحكم وهي هدف لم يبلغ بعد وقد وصفها تشرشل بأنها أفضل النظم السيئة. وهي مستقبل مجهول إذا لم يتم تطويره والتغلب على العيوب البارزة فيه.

رغم أن الديمقراطية الغربية تمثيلية بما يسمى البرلمان ولكنه لم يساهم في توزيع السلطة على أفراد الشعب، بل في تحويل احتكارها إلى النخب التي تحكم انطلاقًا من مصالحها الخاصة والضيقة وأصبح في النهاية حكم القلة صاحبة النفوذ أو ما يسمى بدولة الأغنياء.

فالديمقراطية بالمفهوم الغربي صناديق اقتراع وأحزاب ودساتير وفصل السلطات ولكن العملية الانتخابية تتطلب ميزانيات كبيرة ليست في متناول الجميع ما يضطر البعض ممن يرشح نفسه إلى عقد صفقات سياسية وبالتالي ضمن نفوذه قبل دخوله مراكز صنع القرار.

إن واقع التطبيقات المتنوعة للنظام الديمقراطي تشهد على توفره على أسس متينة لحيادية آلياته وعدم ارتباطها بأي منظور أيدلوجي، علمانية كانت أو دينيًا. إنه نظام يقوم على تسويات يتوصل إليها الفرقاء يستعيضون بها عن الوسائل العنيفة بالوسائل السلمية في حل خلافاتهم من أجل التعايش السلمي.

وليس في الإسلام ما يمنع الترتيبات التي جاءت بها الديمقراطية وهي علاجًا لأمة الدكتاتورية التي اكتوى بنارها معظم تاريخ الإسلام وبقية شعوب الأرض.

والإسلام كعقيدة وفلسفة وحضارة يمكنه الالتزام بالديمقراطية كأسلوب يقابل الاستبداد والديكتاتورية التي تحتجب وراء مختلف الشعارات في معركتها ضد الإنسان وتنميته وحقوقه. وإن الإسلام في حقيقته يعبر عن الإطار

الثقافي والحضاري الشامل الذي ينبغي أن ينطلق من خلاله الإنسان المسلم في صراعه ضد التخلف والاستلاب.

فالتخلف السياسي الذي يعيشه العالم العربي ممثلاً بسيادة الأنظمة الشمولية فيه التي هي أحد عوامل انهيار الحضارة الإسلامية وتخلف المجتمعات التي ورثتها.

والمثقف الحقيقي هو الذي يبشر بالقيم الإنسانية ولا يحب أن يعطل اندماجه السياسي والقدرة على الحدس والاستشراف لإنتاج قيم بديلة في المجتمع لقيم سائدة بدت أنها فاشلة.

يجب تجاوز الخلاف النظري بين الشورى والديمقراطية في التطبيق والمضي قُدمًا في الإصلاحات السياسية التي هي جزء من المشروع الإصلاحي.

وإنه من الأفضل أن يتم التعامل مع الشورى كسقف للديمقراطية وكآلية من آليات الشورى.

والشورى في الإسلام لم تتحدد بآلية محدده، ولم تكن لها تفاصيل معينة ولكنها تركت لما تقتضيه الظروف وتتطلبه الوقائع والشريعة لم تضع نظامًا خاصًا للشورى ولم تفصل في أحكامها ومبادئها، ولكنها شورى تعود وتقود إلى تنظيم عادل يحفظ الحقوق ويبسط العدل، يجمع ولا يفرق، يبنى ولا يهدم، يوصل الحقوق إلى أهلها.

نحن نريد الديمقراطية التي هي بالفعل مناسبة لهويتنا ولحقيقتنا الاجتماعية فلكل مجتمع حقيقة معينة. نحن نريد ديمقراطية حقيقية لا ذرائعية ويجب ألا نسقط في التسييس ولا في المبادرات والمؤامرات.

عليه فإنه لا يلزم من موافقة الديمقراطية الليبرالية الغربية في بعض الجزئيات، وأن يأخذ الموافق سائر ما فيها. أو يتبنى فسلفتها ومن حقنا أن نختار لأنفسنا من المبادئ والقيم السياسية وما نراه مناسبًا لهويتنا وواقعنا ووسيلة أحسن لتحقيق أهدافنا.

إذا كان هدف الولايات المتحدة والغرب من إطلاق مبادرة طموحة تهدف إلى تطوير الديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط الكبرى بغرض تبنى نموذج يستخدم للضغط من أجل توفير الحريات على غرار ما حدث في الاتحاد السوفيتي السابق ومنطقة شرق أوربا على أمل أن تؤدي المبادرة إلى القضاء على ظاهرة الإقبال على التطرف الإسلامي.

كما صرح بذلك مسئول بوزارة الخارجية الأمريكية ونحن نهدف بالخروج من أزمة التخلف التي نعاني منها وتنطلق المبادرة الأميركية التي تعتزم الإدارة الأمريكية طرحها واعتمادها خلال مؤتمرات القمم اعتمادًا على القواعد التي حددها العرب أنفسهم في تقارير برامج التنمية التابع لمنظمة الأمم المتحدة.

فهل أصبح العرب اليوم مصدر الهم والقلق في العالم؟ يبدو كذلك لأن الموضوع العربي استأثر بالجانب الأوفر حظًا في مناقشات دافوس وغيرها في سياق اهتمام غير مسبوق بأوضاع البلدان الداخلية وتأثيرها على أمن العالم واستقراره.

ويعتبرون البلدان العربية بؤرة تحدى التي تواجه البشرية في ثلاثة جوانب أساسية وهي الشراكة والأمن والرفاهية. وهذه التحديات الثلاث وقفت دون الاندماج في المنظومة الدولية وفق استحقاقات المرحلة الراهنة.

المبحث السادس: حيوية الإسلام البنائية (نماذج للوحدة)

مفهوم الأمة الواحدة:

وحدة الأمة وحدة عضوية مثلما أعلن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حينما شبهها بالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. لكن كيف نؤول حديث افتراق الأمة الذي رواه معاوية بن أبي سفيان والذي قال فيه: قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة.

هذا الحديث أخرجه أبو داود ورواه الإمام احمد في المسند وإسناده صحيح كما ذكر محقق جامع الأصول وأخرجه أيضا الدرامي والحاكم والطبراني واللالكاني وابن عاصم.

ويقول الخطابي إن قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (ستفترق أمتي) فيه دلالة على إن هذه الفرق غير خارجة عن الملة والدين.

وهناك قول لابن الوزير يقول فيها: إن عبارة (اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة) زيادة فاسدة غير صحيحة أي أنها ليست من متن الحديث بل يعتبرها البعض مثل ابن الوزير أن تكون هذه العبارة دسيسة وضعتها الملاحدة لتفريق الأمة ويؤكد هذا القول ابن حزم إذ يقول إن هذه العبارة موضوعة وغير موقوفة ولا مرفوعة، وروى الترمذي من أن هذا الحديث غريب ولكنه استدرك وقال حسن صحيح.

فالعلماء اهتموا بتعدد مصادر هذا الحديث والحكم عليه، والعلماء اختلفوا عند جملة (كلهم في النار إلا واحدة) قالوا: من هي يا رسول الله قال: ما أنا عليه وأصحابي. وفي رواية أخرى قال: الجماعة فهذه الجملة فيها خلاف، والعلماء يقولون أنها زائدة أو مدسوسة.

وذكر السيوطي في اللآلئ عن العقيلي بسنده إلى أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: تفترق أمتي على سبعين أو إحدى وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة، قالوا: يا رسول الله من هم قال الزنادقة وهم القدرية. وفي تعليق العلماء على هذا الحديث فيه اضطراب شديد في المتن والسند.

لكن ما هو المقصود بالفرق في هذا الحديث؟ فالحديث يقصد بالفرق هم أهل الأهواء وليس الفقهاء الذين اختلفوا في فروع الفقه مع اتفاقهم على أصول الدين، أي أن المقصود أيضا بالفرق الضالة وليس أصحاب المذاهب الفتية من سنة وشيعة وغيرها.

فمن يفهم هذا الحديث على أن الفرق هي المذاهب الفقهية وضعوا أمام الأمة الإسلامية بهذا الفهم غضبة كبيرة جدًا أمام محاولات التقريب بين المذاهب المقبولة بين عموم الأمة التي لا تختلف فيما بينها إلا في الفروع بعيدًا عن الأصول عبر الحوار البناء.

فمن قبل الحديث وفهمه الفهم الصحيح هم بين من أساؤوا فهمه وبين من رفضوه بحسب زعمهم أنه يتصادم مع الهدف الأسمى من الدين وهو تأليف القلوب وتجميع الأمة، ولكنه يتصادم مع قوة إسناده وصحته وكثرة رواته من طرق عدة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن سعيد بن أبي وقاص قال: بعثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم - في رجب ولا نكون مائة، وأمرنا أن نغير على حي من كنانة إلى جنب جهينة فأغرنا عليهم، وكانوا كثيرًا فلجأنا إلى جهينة فمنعونا وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقلنا إنما نقاتل من أخرجنا من

البلد الحرام في الشهر الحرام، فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقال بعضنا: نأتي نبي الله فنخبره وقال قوم: لا بل نقيم ها هنا وقلت أنا في أناس معي: لا بل نأتي عير قريش فنقتطعها، فانطلقنا إلى العير وكان الفئ إذ ذاك من أخذ شيئًا فهو له فانطلقنا إلى العير وانطلق أصحابنا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه الخبر فقام غضبان محمر الوجه فقال: أذهبتم من عندي جميعًا وجئتم متفرقين؟ (إنما أهلك من كان قبلكم الفرقة لانبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش) فبعث علينا عبد الله بن جحش الأسدي فكان أول أمير أمر في الإسلام.

فالسرية انقسمت إلى ثلاثة أقسام بين العودة إلى المدينة وبين ملاحقة عير قريش وبين الانتظار في جهينة لتلقي أوامر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يحاسبهم على اختلافهم في الرأي وإنما غضب على فرقتهم ولم يناقش صحة أي رأي من الآراء لأنه أرسل الجيش وحدة واحدة وأتاه بفرق ثلاث فالاختلاف المؤدي إلى فرقة الصف وتشققه هو سبب هلاك الأمة

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥].

وأخذ الصحابة هذا الموقف درسًا في بقية مواقفهم الأخرى ولم يتكرر أبدًا لذلك عندما تقابل المسلمون في غزوة مؤتة وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف بينما عدد العدو مائتي ألف اختلفوا في الرأي بين المواجهة والتريث فحينما قال عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه -: للتي خرجتم تطلبون وأننا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة ولكننا نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا به فامضوا على بركة الله فإنما هي إحدى الحسنين النصر أو الشهادة ومضوا جميعًا في سبيل الله حتى استشهد قادتهم الثلاثة ثم استلم الراية خالد بن الوليد وأنقذ الموقف وتم على يده النصر.

إنه الدرس الذي تعلمه الصحابة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - على التمسك بروح الجماعة وحينما قدم معاوية بن أبي سفيان مكة بعد صلاة

الظهر قال: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة _ يعني الأهواء _ كلها في النار إلا واحدة _ وهي الجماعة _ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء لما يتجارى الكلب لصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله) فقال معاوية: والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به هكذا رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ومحمد بن يحي كلاهما عن المغيرة.

ويقول ابن عباس للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب وأهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

فالفرق الموجودة اليوم هي فرق سياسية باسم الدين، فالأمة الإسلامية اليوم بحاجة إلى من يثري السياسي والديني بما يكفل توحدها من أجل تطورها. لأن مفهوم الأمة الواحدة له آليات ووسائل وفعاليات كي تتحقق من خلال تأصيل العلاقات بين الأمم والشعوب.

فالوحدة الإسلامية أمر واجب ومطلوب من المسلمين تحقيقها في ما بينهم ولن تتحقق إلا بنبذ عوامل الفرقة والتركيز على المشتركات.

والهدف الأساسي من تعدد المذاهب وما يتبعها من اختلافات فقهية هو تيسير على الأمة لا من أجل تمزيق جسد الأمة الإسلامية، وتفتيت صفوفها مثلما هو حاصل اليوم بل أداة طبيعية بيد سياسات مشبوهة لزرع الشكوك بينهم وتعميقها.

وحينما بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال لهما: (تطاوعا ولا تختلفا). فكان تركيز الرسول - صلى الله عليه وسلم - على وحدة الموقف لأنه مقدم على الاختلاف في الرأي واعتباره وجهات من وجهات النظر المتعددة مهما بلغت درجتها كي تساهم في تذويب الجليد وتبديد الشكوك وتعميق الثقة

{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى:١٠] على اعتبار أن الاحتكام دائمًا يكون للكتاب {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [البقرة:٢١٣] ومن كان مرجعه الكتاب والسنة يهديه الله إلى الحق {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ } [البقرة:٢١٣] لأن الاختلاف المؤدي إلى الفرقة حذر منه القران الكريم {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥] لأن من صفات الاختلاف الشك في نصوص هذا القران وعدم التسليم لإحكامه، أنزل الله لهم هذا الكتاب لكي يزيل عنهم هذا الاختلاف {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل:٦٤].

ومهما يكن من اختلاف فإن أمره متروك لله سبحانه وتعالى من أجل الحفاظ على الوحدة {إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة:٤٨]، {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس:٦٤].

يجب ألا ينساق المسلمون إلى التشدد الذي يمكن أن يحسنه كل فرد بل يجب أن يكونوا وسطيين {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [البقرة:١٤٣] كي تكون أمة الإسلام شاهدة على العالمين بشرط أن تنبذ الفرقة المؤدية إلى التخلف والتقوقع

والتمسك بالعصبية الجاهلية التي جاهد الإسلام في محاربتها وإلغائها لتهيئة هذه الأمة لنشر وتبليغ هذه الرسالة إلى العالمين.

فالمشروع الوحدوي لابد أن يتحول إلى ثقافة شعبية وعدم حصرها بالنخب العلمية والمثقفة، وتشكل خارطة طريق للوصول إلى شاطئ النجاة من الفتن الطائفية وفصل الاختلاف الفقهي عن الاختلاف السياسي، فلكل منهما خصائصه وأساليب التعاطي معه، لأن الاختلافات الفقهية مكانها دور الفكر ولا يجوز تحويلها إلى وقود للصراعات السياسية بين الشعوب حول النفوذ المدعوم بإعلام طائفي مقيت.

حيوية الإسلام البنائية:

أفرز الاستعمار أثناء الاحتلال حركات تحرريه وبعد خروجه دعم حكومات مستبدة مواليه له فظهرت على أثرها حركات إسلامية تكرس لمواجهة جانبين داخلي وخارجي. ودخل بعضها في حالة تأزم بسبب الخوف الغير مبرر على الهوية الدينية وأصبحت في حالة قطيعة مع كل ما هو حديث أو ما يسمى بالحداثة وأصبحت الدول العربية خاصة والدول الإسلامية بشكل عام ممتنع عليها أن تهب عليها رياح الحداثة والتغيير مما جعلها في حالة تخلف مزمن.

والحداثة كما يعرفها برهان غليون (بأنها ليست مسألة تقليد أو اقتداء أو اقتباس أو فهم أو استيعاب عقلية. ولكنها مسألة صراع تاريخي بين قوى داخلية وخارجية لامتلاك موارد مادية ولا مادية ... الحداثة بهذا المعنى ليست أمرًا معطى ولكنها محلية صراع لانتزاع ثروة تتنازع عليها قوى متعددة).

وهذا يعني أن العرب كانوا بعيدين عن هذا الصراع على كل ما هو حديث وخصوصًا الصراع في التقنيات الحديثة ومن ثم تطويرها والتي هي سبب تفوق الشعوب الأخرى.

فالدين الإسلامي يوازن بين الدنيا والآخرة فأول عمل يقوم به المسلم عند تمكينه في الأرض هو إقامة هذا الدين {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج:٤١]، ومن ثم تقوية هذا الدين في الأخذ بأسباب الحياة والقوة {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت:٦٩]

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الكهف:٧].

لكن ما وقعت فيه بعض الحركات الإسلامية هما أمرين: المواجهة والقطيعة.

فالخشية من ذوبان الهوية الدينية كانت أزمة بعض هذه الحركات التي لم تدرك أن هذا الدين متين لا يخش عليه كما في الحديث "إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه

برفق".

{قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا} [الكهف:٢].

فوقعت الحركات الإسلامية في الفترة الماضية في صراع بين هذين النموذجين: القطيعة والمواجهة حفاظًا أو خوفًا على ذوبان الهوية الدينية. رغم أن طبيعة هذا الدين الحيوية يستمد قوته من خلال الانفتاح والتواصل مع كل ما هو غير إسلامي أي بإسلام بنائي غير متأزم لديه القدرة على إقامة جسور التواصل مع كافة الأمم والإيديولوجيات وله القدرة أيضًا على احتواء كل ما هو مخالف للإسلام.

فمهمة المسلم بعد أن يمكنه الله في الأرض أن يقيم أولاً أركان الدين الإسلامي بعيدًا عن كل إيديولوجيات المواجهة أو المقاطعة التي تعيق تقدمه ومساره وهي مخالفة لعالمية الرسالة التي تدعو إلى الانفتاح والتعايش مع الآخر غير الإسلامي، والدين الإسلامي حق في وصوله إلى كل البشر وليس حكر على فئات محددة، فعالمية الرسالة ضد أي انغلاق أو مقاطعة تؤدي إلى قوقعة المسلمين وانعزالهم عن بقية الشعوب الأخرى، مما يعطل انتشار الرسالة المحمدية التي هي أمانة في أعناق المسلمين لنقلها إلى كافة البشرية حتى في ظل حقائق مهمة إبانها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه الكريم {وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [البقرة:١٢٠]، {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩]

{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران:١٢٠]

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو

مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد:٦] فمن الطبيعي أن يكون هذا الدين مستهدف ولكن لا يقابل هذا الاستهداف بالقطيعة والمواجهة غير المحددة التي أباحها لنا الإسلام {لشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة:١٩٤] أي أن تكون المواجهة بمثل ما اعتدى على الأمة الإسلامية ويقتصر فقط على المعتدين دون اشتماله أناس آخرين وإذا ما توقف اعتداءهم فلا يجوز الاستمرار في الاعتداء عليهم؛ لأن دين المسلمين الاقتداء بسيد البشر محمد - صلى الله عليه وسلم - {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١] {قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر:١٠] {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} [النمل:٨٩].

وعلينا أن نواجه العالم بعالمية الإسلامي المنفتحة على الشعوب القادرة على احتواء كل ما يحاك ضد الإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي يصعب إزاحته من النفوس إذا اطمأنت به، ولكن يمكن أن يضعف ويمكن أن يقوى بحسب حال المسلمين من القوة والانفتاح واليقظة والإعداد الجيد مما يمكنهم من القدرة على التعايش مع الشعوب الأخرى حتى تبلغ رسالة الإسلام؛ لأن الإسلام دين حيوي بنائي وعالمي فهو لا يقبل الانغلاق باسم هذه الخصوصيات التي يتميز بها هذا الدين عن سائر الأديان الأخرى بل لا توجد محنة ولا أزمة تعيق تقدم وانتشار هذا الدين الذي يؤمن بواقعية الأمم بل قادر على إنهاء أي صراع إيديولوجي معتل يعيق تقدمه وانتشاره، فالجماعات والقوى الإسلامية الكبرى بدأت تعي حقيقة الإسلام وحيويته البنائية ورسالته الموجهة للعالمين التي لا تستطيع جميع قوى الأرض إن تقف أمام مده وانتشاره؛ لأنه خاتم الأديان ترتضيه النفوس متى ما بلغها بصورته الحقيقية

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة:٣].

نماذج لبناء الوحدة:

يسعى كثير من المفكرين إلى بناء مقاربات فكرية بين نماذج الوحدة الموجودة في العالم وتسقط عليها تارة مسميات شتى وتصفيات لحسابات فكرية إيديولوجية تارة أخرى. فالبعض يتساءل لماذا نجح النموذج الأوربي كوحدة وفشلت الوحدة العربية والإسلامية؟

ولكن من الظلم إسقاط الوحدة الأوربية على الوحدة العربية فالوحدة الأوربية لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد ما أحدثت تغيير جوهري في طبيعة السلوك والفكر السياسي ومرت أوربا بثورتين ١٧٨٩ و ١٨٣٠ أحدثت تغييرات في البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية رغم ذلك وصلت في تداعيات حروب أوربية – أوربية فهي بعكس الدعوة إلى الوحدة العربية والإسلامية التي يدعو إليها الدين الإسلامي بينما الوحدة الأوربية كانت بدايتها انعتا من القيود المكتسبة وقيود الملكية المطلقة.

ولكن سبب فشل القومية العربية وانهيارها ارتباطها بحركات التحرر من الاستعمار وتفاوت فترات الاستقلال من بلد لآخر فلم يحصل التنسيق القومي بينها وكانت بين تيارين تيار غلب السيادة الوطنية على القومية العربية، وتيار آخر اعتبر الجامعة العربية السقف الذي يجر الهوة بين قانونية الهوية الوطنية وشرعية الهوية العربية القومية. كما أن أغلب حركات التحرر بعيدة عن الدين ومتأثرة بحركات العلمانية الأوربية كذلك كانت مناداتها بوحدة الأمة العربية المجردة عن الدين والمنفصلة عن جسم الأمة الإسلامية علاوة على ذلك، فكان ينقصها الإرادة السياسية التي نجح بها الاتحاد الأوربي وانعكس ذلك أيضًا على أروقة الجامعة العربية أي ينقصها إرادة البرلمان ما فوق الوطنية.

وإذا ما نظرنا إلى الوحدة في الإسلام فنجد أن الإسلام أقام حضارة ووحدة واسعة في الجزيرة العربية امتدت إلى شمال إفريقيا وبلاد الشام وأواسط آسيا ولم يحقق العرب وحدة إلا في ظل الإسلام حتى نهاية الخلافة العثمانية التي أسقطها دعاة القومية العربية بالتعاون مع الاستعمار.

فالإسلام يدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية لكفالة وحدة الأسرة البشرية وكفالة الحرية الدينية على سطح المعمورة والدعوة إلى التضامن البشري ضد كل معتد حتى ولو كان من المسلمين {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة:٢]، ورد كل عدوان وحفظ سيادة الدول {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة:٨] {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣] {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥].

فمنهج الوحدة الإسلامية منهج تعايش بين جميع البشر لتحقيق الأمن والسلم العالميين المبنى على توسيع دائرة المشترك الحياتي والإنساني مع تجنب توسيع دائرة التمايز العقدي التي تترك للبشر {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٥٦]، والابتعاد عن ثقافة عسكرة العلاقات الدولية المؤدية إلى حتمية صراع الحضارات أو تقسيم العالم إلى فسطاطين؛ لأن الإسلام يتكون من عقيدة وشريعة ورسالة وحياة فالعقيدة تمثل الخصوصية للمسلم وتميزه عن غيره من البشر {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:٦] ضمن تعايش مع جميع البشر.

الوحدة من خلال التنوع:

يدغدغ الأوربيون حلم الوحدة للوقوف ككيان متماسك أمام التكتلات الأخرى خصوصًا في عصر العولمة بعدما انهارت إمبراطوريات دول عديدة في أوربا لذلك كلفت الرئيس الأسبق الفرنسي فاليري جيسكار ديستان في عام ٢٠٠١ مع ١٠٥ شخصيات سياسية وثقافية أوربية أخرى لبلورة مشروع أوربي كبير.
هذا المشروع بعد الانتهاء منه رفضته دولتان من أوربا هما فرنسا وهولندا وقبلته بقية الدول الأوربية الأخرى.

ولكن كيف يمكن لدول مختلفة قوميًا ولغويًا وعرقيًا أن تجتمع داخل كيان سياسي واحد؟ هذا السؤال الذي يهمنا نحن العرب والمسلمون رغم امتلاكنا مقومات الوحدة. فالمشروع يعترف أولاً بتنوع وتعدد أوربا ورغم التوحد والدمج إلا أن الخصائص الحضارية القومية تبقى موجودة وراسخة بل اعتبرها المشروع مصدر غنى وثروة وبالتالي فمحاولة محو التعددية أو تجاوزها خطأ كبير جدًا.
وعوامل التوحد القوية مثل الدين واللغة والسلطة السياسية المركزية كلها مفقودة في أوربا فلا يمكنها أن تستلهم من أجل توحيدها النموذج الأميركي القائم على اللغة الإنجليزية الذي أوجد هوية مشتركة وجعل منها مشروع دولة كبرى، ويرى جيسكار ديستان أن تصبح أوربا كيانًا سياسيًّا موحدًا بالفعل إلا بعد خمسين سنة، وهذا أكبر دليل على إن التوحيد عملية صعبة ومعقدة وتتطلب وقتًا طويلاً لكي يحصل الانصهار والاندماج. ولا ينبغي أن تحصل الوحدة بشكل قسري ضد إرادة الشعوب لأنها سوف تفشل، وعندئذ يحصل رد فعل ضدها. فالتوحيد لابد أن يتم بالتدريج وعلى مراحل مع تهيئة الشعوب نفسيًا لها في كل مرة لكي تقبلها وتهضمها ويقول جيسكار ديستان: إن الوحدة القائمة على الاستبداد واحتقار الكرامة الإنسانية خير من التجزئة وعدم الوحدة على الإطلاق.
وبالفعل فإن ما يدور في العراق بعد وحدة صدام حسين هي الآن في طريقها نحو التجزئة والتقسيم لأن الديمقراطية المطبقة هي ديمقراطية محاصصة القائمة

على التقسيم وليس الديمقراطية القائمة على الأحزاب غير الطائفية مثلما هو حاصل في دول الغرب.

فإذا كانت أوربا تسير نحو الوحدة على مراحل وهي لا تمتلك من مقومات الوحدة الأساسية شيئا ، ولكنهم يمتلكون الإرادة السياسية والمشروع الحضاري الذي بهما تتوحد في حين أن العرب والمسلمين يمتلكون مقومات عديدة أهمها الدين واللغة المشتركة والعامل الحضاري إلا أنهم يفتقدون الإرادة السياسية والمشروع الحضاري ونعيش حالة من الانقسام والتجزئة والصراع المذهبي بين السنة والشيعة وهي المرحلة التي عاشتها أوربا زمن الحرب الأهلية الطاحنة بين المذهبين الأساسيين الكاثوليكي والبروتستانتي إلى أن أصبحت العلمانية العقيدة العلمية والفلسفية المشتركة التي حلت محل الدين بعد عصر التنوير، واستطاعت تجاوز العصبيات الطائفية والمذهبية وتم القضاء عليها كليًّا في الفضاء الأوربي المتحضر. بينما المسلمون رغم دعوة الدين الإسلامي إلى الوحدة والاعتصام بحبل جميعًا فإذا كانت العلمانية المخرج لأوربا من مأزقها فان الالتفاف حول كلمة التوحيد هي المخرج من أزمتنا ونبني بها المشروع الحضاري الاندماجي الذي قامت عليه حضارة الإسلام وامتدت لعصور طويلة ولن تعود بالأمنيات بل بإعداد مشروع قابل للاتفاق والالتفاف حوله بجانب إرادة قوية على جميع المستويات.

هل يستطيع العرب والمسلمون أن يدخلوا في وحدة مبسطة؟

فشلت الوحدة بين الدول العربية رغم مقومات الوحدة التي تعتبر نواة للوحدة الإسلامية لكنها لا زالت متشرذمة ومتفككة وتتخطفها الدول من كل مكان رغم التحديات التي تحيط بها وتتهددها في كل مكان وزمان لكن كيف تخطت الدول الأوربية أزماتها وهي لا تملك من مقومات الوحدة ما يملكه العرب؟ فقد توصل الأوربيون في قمة لشبونه بالتوصل إلى اتفاق على معاهدة

جديدة للإصلاح ستكون بديلة لمشروع الدستور الأوربي الذي فشلت الدول الأعضاء في تمريره في خطوة لتأكيد المسار الوحدوي الذي ساور البعض الشكوك في إمكانية استمراره.

تنازل الاتحاد الأوربي عن العلم والنشيد الأوربي والدولة الكبرى اكتفت بالحد الأدنى بمعاهدة تضم بنودًا لتسيير أمور المجموعة الأوربية الموحدة خاصة فيما يتعلق في العمل المؤسس وفي نفس الوقت تحقيق مطالب عدد من الدول الأعضاء التي تخشى من إلغاء الهوية الوطنية.

فتمرير (المعاهدة المبسطة) بعد إلغاء المفاهيم التي تشبه الاتحاد الأوربي بدولة فيدرالية مثلما كان موجودًا في الدستور.

(المعاهدة المبسطة) أنهت أزمة مؤسساتية مستمرة منذ أكثر من سنتين. بهذه المعاهدة حسب تصريح رئيس وزراء البرتغال جوزيه سوكراتيس الذي ترأس الاتحاد الأوربي (إن أوربا خرجت من أزمة المؤسسات وأصبحت مستعدة الآن لمواجهة التحديات المستقبلية) ومن المتوقع أن تصبح المعاهدة نافذة في ١٣ ديسمبر ٢٠٠٧ وتصبح نافذة في الأول من يناير ٢٠٠٩ وصيغت المعاهدة ليكون من الممكن المصادقة عليها بدون استفتاء مثلما حدث للدستور في عدد من الدول الأعضاء في فرنسا وهولندا وكان التصويت الشعبي ضد الدستور.

والمعاهدة تحمل معظم أفكار الدستور ولكن تفادت كلمة دستور وحذفت كل ما كان يوحي بإعطاء الاتحاد الأوربي شكل دولة كبرى.

فالمعاهدة سيتم حسمها في البرلمان الأوربي بدون استفتاء شعبي حول هذا النص ورغم ا لدعوات في بريطانيا بإجراء التصويت رفض رئيس الوزراء براون تلك الدعوات وقال: (حان الوقت لأوربا لتنتقل إلى شأن آخر ولنصب كل جهودنا على المشكلات المهمة بالنسبة للأوربيين: النمو الاقتصادي والعمالة والتغير المناخي والأمن).

وما حدث في لشبونة هو حدث تاريخي ولكن كيف توصل الأوربيون إلى هذا الحدث التاريخي بينما لو حدث استفتاء في الدول العربية على الوحدة

لصوتت كل شعوب العالم العربي على الوحدة ولكن لم يتمكن العرب التعامل مع القضايا الكبرى بروح المسؤولية ومصلحة الشعوب والتنازل عن جزء من الوطنية بدلاً من أن تذوب في عصر العولمة فمتى يرتفع المسئولون إلى مستوى الحدث ولو بأبسط المشتركات الواقعية والممكنة التي تمكنت أوربا من إقرارها التي تصب على أوربا بحلة جديدة ونفوذ أوسع، ووجود دولة رئيسة للاتحاد لمدة سنتين تقود الاتحاد نحو المجالات التي تتطلب موافقة الأغلبية في القرارات بدلاً من الإجماع وتحقيق أهداف مشتركة جديدة مثل سياسة عامة للطاقة والوقود ونجحت القمة في إنهاء الخلافات وتسوية المطالب التي تقدمت بها عدد من الدول ولم يصل الأوربيون إلى هذا الاتفاق التاريخي إلا بحزمة من التنازلات مقابل الشعور بأمن الوحدة واستطاعت المعاهدة تفادي استخدام أي دولة حق الفيتو – الرفض – ضد أي اتفاقية.

فنجاح وحدة الاتحاد الأوربي راجع إلى قوة العمل المؤسس الذي قاد إلى اتفاق أوربي. وإذا ما أردنا في العالم العربي إنجاح وحدة عربية فالبوابة هي تفعيل وتنشيط البرلمان العربي المنبثق عن البرلمانات العربية الوطنية المستقلة.

فالقادة الأوربيين أثبتوا لشعوبهم أن لديهم القدرة على تحقيق توافق يخدم المشروع الأوربي الوحدوي فإنجيلا ميركل تقول: إن الاتفاق خطوة مهمة غير عادية للأمام في تاريخ الاتحاد الأوربي الموسع. فمتى يرتفع قادة العرب إلى مستوى قادة أوربا؟، رغم أن التحديات التي تواجهنا أكبر وأعنف من التحديات التي تواجه الاتحاد الأوربي بل نحن نواجه تفتيتًا وتمزيقًا وحروبًا طائفية.

الوحدة من خلال التوافق:

أدرك الرسول – صلى الله عليه وسلم – أهمية الوحدة من خلال التوافق ومنذ تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة وتأسيس مؤسسات الدولة كان يوصي رسله عندما يذهبون إلى أنحاء متفرقة من العالم بوحدة الموقف فقال لمعاذ بن

جبل وأبو موسى الأشعري عندما أرسلهما إلى اليمن: (تطاوعا ولا تختلفا) وكان يغرس الرسول - صلى الله عليه وسلم - في نفوس أصحابه التوافق على الرأي مهما تعددت الآراء ففي السفر مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في رمضان كان بعض الصحابة يصوم والبعض الآخر لم يصم، فلم ينكر صلى الله عليه وسلم على أحد من أصحابه، إلا عندما رأى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أحد الصحابة يظلله أصحابه من أشعة الشمس فقال: ما هذا؟ فقالوا: للرسول - صلى الله عليه وسلم - إنه صائم ويعاني إجهادًا نتيجة الصوم، فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: (ليس من البر الصيام في السفر) هذا هو معيار الإسلام في الإنكار جاء لمن أجهد نفسه جراء الصوم لكن من كان قادر على الصوم في السفر فلم ينكر عليه الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

وكان يحرص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على وحدة الأمة، وإذا وجد اختلاف بين أصحابه يستنكر ذلك الخلاف بعمومه، وكما قال لهم قبل وفاته: قوموا عني لا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

وقد تكون كل الآراء صحيحة وكل منها تنظر من زاوية معينة لكن وحدة الموقف مقدم على الرأي الأصح، والتوافق لا يكون بالإجماع على رأي واحد، وأحد الأمثلة على ذلك موقف العراقيين تجاه الاحتلال في العراق الذي كان يفترض أن يواجه الاحتلال بموقف موحد من خلال التوافق في مواجهة الاحتلال إلا أن ما حدث هو انقسام في العقول بقدر ما هو انقسام في الأرض وفرقة الناس، لكن نجد في المقابل أن الصهيونية تحتفل بصمود الكيان الإسرائيلي لمدة ستون عامًا رغم أنه كيانًا زائفًا ومزعومًا أصبح حقيقة وجزء من النظام الديمقراطي المتقدم صناعيًا وعلميًا بينما المشهد الفلسطيني مشهدًا قاسيًا نتيجة الانقسام لأن النزاع بين الأشقاء الفلسطينيين بين فتح وحماس تحول إلى تناحر بعدما اعترف العالم بحق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة.

لكن لماذا نجح الإسرائيليون وتفكك الفلسطينيون والعرب؟ صحيح أن اليهود لهم حواضن بريطانية ثم أمريكية إضافة إلى الحاضنة الأوربية بينما

الفلسطينيون لهم حاضنة عربية إسلامية منقسمة إضافة إلى أن هناك مشكلة أخرى خاصة بالفلسطينيين الذين توزعوا على الحواضن العربية وأقاموا تحالفات متناقضة وخاطئة أي أن تلك الحواضن كانت سببًا في التفرقة قد ينتهي هذا التفرق بعد الصحوة العربية وسقوط الأنظمة الدكتاتورية في حين انشغل الإسرائيليون في بناء المؤسسات والمجتمع المدني تحت قيادة واعية؛ لأن الصهيونية تؤمن بالمؤسسات والقيادة المشتركة أيًّا كان الاختلاف بينها.

الخاتمة

التحديات التي تواجه العالم الإسلامي وعوامل النهوض:

فإن للنهوض أسباب وللإنهيار أسباب ولكن أين الخلل؟ وما هي الأسباب؟ هناك مشاريع نهضوية لم تستمر ولماذا؟ هل التمسك بالمثاليات هن أسباب تخلفنا؟ أم المؤامرات الخارجية هي السبب الرئيس في تخلفنا؟ وهل خطر الاستبداد السياسي أكبر أم خطر التجزئة الفطرية أخطر؟

فالإستبداد السياسي يمكن حله بالشورى ولكن التجزئة القطرية هي أخطر من مسألة الاستبداد؛ لأنها تشل حركة الدول بل وتشل حركة القطر الواحد، فهموم الأمة الإسلامية كثيرة والتحديات التي تحيط بها أكبر.

فالعالم الإسلامي يعيش حالة من التفكك والإنقسام والتشتت والتهميش والتخلف والفقر والتبعية. كل هذا ساهم في رسم صورة مشوهة للإسلام، وصورته على أنه دين مرادف للتخلف، وعدو للحضارة، وخصم للعلم، وتوأم للاستبداد والإرهاب بجميع صنوفه، أضيف إلى هذه التحديات الداخلية تحديات خارجية تركزت في الظاهرة الاستعمارية بجميع أشكالها، بأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه الدول.

ولقد شغلت مسألة نهضة العالم الإسلامي وتطوره بال المفكرين، وهناك انطلاقات نهضوية بدأت تنطلق من اتجاهات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية تتميز في أساسها ومصدرها عما هو سائد في الغرب لذلك أصبحت نجاحاتها محدودة.

بينما فطن مفكرون مسلمون آخرون إلى أن تقدمهم ينبغي أن ينبع من أسس الإسلام وذاتيته الحضارية ودحض آراء وأفكار بعض المفكرين الغربيين الزاعمين بأن العالم الإسلامي لا يملك أسباب التقدم ومقوماته في داخله، وإنه لابد أن يستقي ذلك من الغرب بزعم أن بعضًا من تعاليم الإسلام لا تدفع إلى التقدم ولا تحث عليه. وكأن تقدم المسلمين يتعارض مع الاحتفاظ بخصوصيتهم

الذاتية النابعة من أصول دينهم ونسوا أن للمسلمين دور كبير في تأسيس الحضارة الغربية نفسها، لكنهم كانوا موقنين بأن الإسلام يقف حجر عثرة في طريق خططهم الاستعمارية أو كما يقول [براون]: إن الخطر الحقيقي علينا موجود في الدين الإسلامي وفي قدرته على التوسع كما كانت إمبراطورياته السابقة وقدرته على التحرك السريع، فإنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي بجميع أشكاله.

ويؤكد عددًا من مفكريهم مثل [جلادستون] بقوله مادام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق.

من أجل ذلك كان لابد من إزاحة الإسلام والقضاء عليه فالعداوة بين الاستعمار والإسلام كما يقول العقاد عداوة تاريخية جغرافية بقسميه، وتلك هي أصعب الغدوات وأعصاها على التوفيق والنسيان.

لذلك كان الاستعمار أكبر سببًا في تخلف العالم الإسلامي في جميع المجالات. حيث قام بالقضاء على جميع الحركات الإصلاحية التي تنادي بالجهاد والحكم بالإسلام مثل الحركة المهدية والسنوسية والوهابية ونادي بالعلمانية وفصل الدين عن الحياة في المجتمعات الإسلامية، وأسقطوا الخلافة العثمانية وقاموا بتقسيم العالم الإسلامي وزرعت دولة إسرائيل بينهم وأحيوا العداوات القديمة بين المسلمين ونهبوا ثرواتهم، وهذه هي التحديات الخارجية.

بينما التحديات الداخلية إذا تخلص منها العالم الإسلامي فإنه يمكن أن ينهض من عثرته، وأن يلحق بركب التقدم في مختلف مناحي الحياة حتى يؤدي المسلمون دورهم المأمول في مسيرة الحضارة الإنسانية والتي يمكن حصرها في أربعة جوانب أساسية:

الأول: توحيد الكلمة والصف ونبذ الخلاف.

الثاني: الأخذ بالسنن الإلهية.

الثالث: تجديد العقل الإسلامي.

الرابع: التخلص من القهر والاستبداد بجميع أشكاله وعلى جميع المستويات.

أولاً: توحيد الكلمة والصف ونبذ الخلاف:

نرى أن أغلب دول العالم الإسلامي تردت إلى أشد حالات الصراع والتمزق الداخلي ما جعل الأمة الإسلامية أمة منهكة متقطعة الأوصال. استبدلت وحدتها شتاتًا وجماع كلمتها تشرذمًا.

ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة في نموذج الوحدة الإيمانية والجغرافية التي عرفته البشرية عبر تاريخها الطويل عندما اتبعت تعاليم دينها الحنيف وهدى رسولها الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فإن نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تدعوان المسلمين إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله تعالى، وتنهيان عن الفرقة والتجزئة والتحزب والفرقة في العديد من الآيات {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:٣] {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} [الأنعام:١٥٩] {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥].

ولم يكتف الإسلام بذلك بل وجهنا إلى السبيل عند الاختلاف في أي أمر فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]، وقوله سبحانه {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [الشورى:١٠]. وقوله سبحانه وتعالى {قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١].

وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: خط رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومًا خطًا، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوط عن يمينه وعن شماله، ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم تلا {وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام:١٥٣].

فإنه لا نجاة لهذه الأمة إلا باجتماع شملها وتوحيد آرائها وترابط أبنائها وإعلان وحدتها حتى تكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى حتى يكون المسلمون أمة واحدة تحقيقًا لقول الله تعالى {إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء:٩٢].

ثانيًا: الأخذ بالسنن الإلهية:

اكتفى المسلمون في مناهجهم التعليمية بمجموعة العلوم النظرية والإنسانية ولم يقتحموا محيط العلم الكوني ويعطوه عنايتهم كما أعطاه الغرب عنايته والذي أرشدهم إليه دينهم الحنيف ليوظفوه ويسخروه للإفادة منه ليكون لهم إسهامًا حقيقيًا في الحضارة المعاصرة والتي فقدته حضارة الغرب نتيجة فقدانه فلسفة الأخلاق، حتى الفلسفة التي أنجبتها تلك الحضارة سميت بالفلسفة النفعية (البرجماتية) حيث أضحي المقابل الحقيقي لأي فكرة هو قياس درجة نفعها بالنسبة للإنسان، ومادام النفع متغيرًا ونسبيًا فسوف تصبح الأفكار نفسها نسبيه والأخلاق نسبيه أيضًا.

فأي عذر للمسلمين في التخلف عن ركب الحضارة؟ وفي كتابهم الكريم أسس التمدن والتقدم والنهوض. وقد كانت حضارة المسلمين مشعة بجميع أنواع المعارف والابتكارات العلمية اضطلع بها العلماء المسلمون الأوائل ولكن توقف العلماء المسلمون في الوقت الحاضر عن الإضافة إليها، بينما أضاف إليها

علماء الغرب وتبنو حضارة العصر الحديث مستغلين التراكم الحضاري لمن سبقهم من المسلمين.

وعالم اليوم لا يعترف إلا بالقوة أو قوة اليوم هي العلم التي تجمع بين قوة الإيمان وقوة العلم وهذا هو جوهر تعاليم الإسلام التي تعتمد فقط على قوة العلم وهي حضارة مادية ناقصة لإهمالها البعد الإنساني الذي هو في الإنسان عاطفة وانفعال وتراحم. لذا جاءت مراميها فاشلة ومساعيها عرجاء لأنها تتقدم وكأنها تسعى إلى حتفها ويؤكد ذلك (روجيه جارودي): "إن الحضارة الأوربية خلقت إنسانًا يسير على القمر بأرض صاروخية ويقتل بمخالب ذرية، وهو ليس إنسانًا بل هو ديناصور مقضي عليه بالفناء.

ثالثاً: تجديد العقل الإسلامي:

يعاني العالم الإسلامي على المستوى الداخلي والخارجي عجز حضاري وغياب عن المساهمة في حضارة العصر.

كما يعاني من عدد الخطابات التي ساهمت في التمزق العقدي للأمة وبث روح التعصب المذهبي وتفشى روح التقليد التي قتلت روح الإبداع ووقف الاجتهاد لمسايرة المستجدات، كل ذلك ساهم مساهمة فعالة في رسم صورة مشوهة للإسلام.

ونحن أمام توجهات متناقضة للمفكرين المعاصرين نحو الاستفادة من حضارة الغرب مابين رافضًا لكل جوانب الحضارة الغربية وبين قبول حضارة الغرب بجميع جوانبها على أن الاتجاه الصحيح هو الذي يقوم على المنهج النقدي الانتقائي الذي يميز بواسطته الجوانب الايجابية فيها لتنتفع الأمة الإسلامية بها، وتتجنب الجوانب السلبية.

ويجب الخروج من حالة التشويش والالتباس العقلي التي تلف عالمنا الإسلامي اليوم.

ولابد من أن نضع العقل موضوعه الصحيح وننزله المنزلة اللائقة به تحديدًا وتشكيلاً، وإخراجه من الصورية الشكلية إلى الاستقرائية، ومن القدرية

إلى السببية التي لا تخل بالقضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده وهو اللوح المحفوظ، ومن التقليد والجمود إلى الاجتهاد؛ لأن التقليد أقصر الطرق إلى التعصب والانغلاق والجمود.

ومن التراث إلى المعاصرة؛ لأن التراث ليس مقدسًا ولا معصومًا بل تراث نسبي ناقص لكن فيه الإصابة وفيه الخطأ فإلزام الناس بهذا التراث فإننا نضيق عليهم، فإن واقع اليوم يحتاج إلى اجتهاد اليوم واعتبار المقاصد وتحقيق مناطات الأحكام ومآلات الأعمال.

رابعًا: التخلص من القهر والاستبداد بجميع أشكاله وعلى جميع مستوياته:

الحكومة الإسلامية ليست دينية معصومة تقوم على نظرية الحق الإلهي وعصمه الملوك وتقديس الحكام، وليست مدنية قائمة على أهواء البشر، لكنها إسلامية ترتضي حكم الله وتجتهد في شئون الدنيا، فالحاكم في الإسلام رجل لا عصمة له، وهو مطالب أن يلتزم بشرع الله ودينه وليس شرطًا أن يكون أفضل الناس ولكنه بالتأكيد أكثرهم حملاً.

فأغلب الحكومات الدكتاتورية ذات النظم الاستبدادية في العالم وطد نفوذها الاستعمار والدول الكبرى لاتخاذها قواعد انطلاق للهيمنة على العالم الإسلامي فالشعوب في عهد هذه الأنظمة مغيبة والحريات مقيدة والشعور بالأمن الاجتماعي مفقود، وتمثل هذه الحكومات الرأي الواحد مع غياب الرأي الآخر وهي الشعوب ولكن قد يتغير الوضع بعد سقوط الأنظمة الدكتاتورية، وأصبحت الشعوب العربية حرة في اختيار حكامها الذي يمكن أن تحاسبها إن هي قصرت.

والحكومات السابقة التي كانت في العالم الإسلامي مواضع ضعف تمثل صورة قائمة وباهتة وهي أحد الأسباب الرئيسية في تخلف العالم الإسلامي.

وإصلاح هذه الأنظمة هي أسباب للنهوض وأسباب للتقدم حتى تواكب أمتنا حاضر العالم الغربي لتدخل معها في حوار متكافئ ومتوازن وتكون فيه السيادة لجميع المواطنين لا لفرد معين ولا لطائفة محددة وتقوم على أسس

وركائز منها: الحرية والمساواة والعدل وقبول الرأي الآخر؛ لأن حرمان الإنسان من حرية الاختيار يخسر الاستقلالية والإرادة والتفكير التي تؤدي إلى إلغاء الإنسان نفسه وتحويله إلى أداة يحركها من يشاء ومتى يشاء حتى تصبح أمة حائرة في عالم الحرائر. والإسلام أول من أقر للإنسان بحقوقه، وأعلى من منزلته، واعتمد له حقين لا نزاع بينهما تتولد منهما كافة الحقوق وهما: المساواة والحرية التي تشمل كل أنواع الحريات (حرية الاعتقاد، حرية التفكير، الحرية السياسية ... إلخ)، ولم يستثنى المرأة من هذه الحقوق إلا فيما يتنافى وطبيعتها الفسيولوجية وتكوينها الجسماني، والتزاماتها الأسرية، ولا توجد به نصوص قطعية الثبوت تمنع المرأة من التمتع بحقوق الرجل، والشواهد التاريخية تشهد بممارسة المرأة لحقوقها الدينية والمدنية وغيرها التي تتناسب معها.

إذا كان يهدد العالم الإسلامي تحديات خارجية وتحديات داخلية فإن التحديات الخارجية هي نتيجة للتحديات الداخلية.

وإذا ما رجعنا وتمعنّا في كتاب الله الكريم وسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - لوجدنا ضالتنا عن سبب تخلفنا في قول الله تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور:٥٥]، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي".

وهذا يعني إن سبب التخلف هو تفريط المسلمون في كتاب الله عز وجل وعدم تمسكهم بالسنة النبوية المشرفة التي تدعوهم إلى الأخذ بالسنن وبأسباب القوة، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - أي لا يمكن أن تكون الأمة الإسلامية غثاء بشكل حتمي بل نتيجة تفريطهم في الخذ بالأسباب التي دعا لها القران والكريم والسنة المشرفة.

وبناء المشروع الحضاري لا يتأتي إلا بالرجوع إلى هذين المصدرين لا باللجوء إلى العنف كبديل الذي نبهنا إليه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - واعتبره غلوًا وتطرفًا ولا يأتي بخير كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "يخرج قوم من أمتي، يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لاتجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميه".

وفي حديث آخر ذكر لنا صلى الله عليه وسلم أوصافهم: "سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ونصبوا أنفسهم مدافعين عن الإسلام، والإسلام براء منهم".

لذا يجب فتح الساحة أمام فكر الاعتدال لمواجهة فكر الغلو والتطرف حتى لا تعطي الذرائع للأمم المتربصة بالمسلمين واستغلال هذه الذرائع أحسن استغلال لتفتيت جسد الأمة وفي وقف مشروعها الحضاري وخير وأجدى لحكومات دول العالم الإسلامي أن تكون هي البادئة في اجتثاث الانحراف الفكري المتشدد البعيد عن كتاب الله وسنة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -، من أن يفرض التغيير من الخارج لتقويم الاعوجاج الذي لم يسلم منه منحى من مناحي حياتنا مثلما تفرض الديمقراطية وحقوق الإنسان علينا بعدما أن تأخرنا في التغيير من الداخل وإقامتها تطبيقًا لشرع الله والاقتداء بمن طبقها من غير المسلمين وهم لا يدينون بشرع الله، ولكن لإفادة مجتمعاتهم، وإن كانوا ديمقراطيون في الداخل فهم مهيمنون في الخارج وخاصة على المسلمين.